جولة حائرة في دنيا المرأة

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

نهدي كتابنا لكل امرأة عرفت دورها ورسالتها وقامت بواجبها في الحياة، وتغلبت على كثير من المصاعب، التي كان يمكن أن تحولها إلى شيطان تئن منه دنيا الإنسان.

[قرأت الأنوثة حرفا حرفا ولا زلت
أجهل ماذا يدور برأس النساء]

نزار قباني

مقدمة

هذه فصول عن المرأة، وسطور تغوص في أعماق حياتها، وتعرض منها وعنها ألوانا مختلفة تجعل القارئ في حيرة من أمره، أمام هذا العنصر الذي ملأ الحياة وارتفع بالحياة، ومن جانب أخر حارت به الحياة وضجت من تناقضه.

لا نبغض المرأة أو نكرهها أو نقف منها موقفا عدائيًا عنصريًا، وكيف ننهج هذا وهي الأم والأخت والبنت والزوجة؟ ولكننا أردنا أو أراد قلمنا، أن يسطر شيئا من دنياها مما يتحير فيه المرء، ويتعجب دهشًا من أحوالها.

فالمرأة ليست صورة واحدة، وعالمها مليء بكثير من التناقض، وهي تختلف كثيرًا عن الرجل في الميول والرغائب والقدرات، ونجدها في الدنيا قد قدمت مواقف متلونة من شخصيتها، فهي المُحِبة والكارهة، وهي القوية والضعيفة، وهي المثقفة والجاهلة، وهي السطحية والمتعمقة، وهي التي تعين الرجل وتتخلى عنه، وهي القوية عليه والمستكينة تحت ظله، هي الوديعة والشرسة، هي الحنان والقسوة، هي الأمان والغدر، هي الشيطان والملاك، هي المضحية والأنانية، هي العفيفة والمتبذلة، هي العاقلة والجاهلة، هي النشيطة والخاملة، هي التي تدفع للمجد أو تقود للضياع.

معان كثيرة نهيم بها ونتعرف عليها في دنيا المرأة، لكننا ندرك ونؤمن بأهمية عنصرها في الحياة، وقدرتها على رسم البسمة على طابعها، وتحويل دنيا الرجال إن شاءت إلى حنة أو إلى نار.

فعلى قدر رقتها وطيبتها، يوجد كذلك خلف الكواليس شراسة قابعة متنمرة، وبيدك أنت أيها الرجل يمكن أن تفتح أي البابين أردت، بتصرفاتك ومعاملتك وفعالك، أنت وحدك من تملك أن تعيش في دنيا هانئة، أو أن تري العالم من عجائب النساء.

لا أشك أنك مع هذا الكتاب ستتعلم كثيرا وتعرف كثيرا عن حياة المرأة، لكنك الدرس الأكبر الذي ستتعلمه هو أن تحسب لها ألف حساب فلا تهملها أو تستقل بها، مهما كانت ضعيفة مسكينة.

بمقدور هذه المرأة يا أخي أن تصنع العجائب والمدهشات التي تتحير منها الدنيا وتظل مضرب الأمثال وأغنية الأجيال.

حاتم إبـراهيم سلامة

احذروا تمرد المرأة؟!

هل تصدقني لو قلت لك: إنني أحترم هذه المرأة التي تتزوج رجلا ندلا حقيرا ظالما، فيطغى عليها ويظلمها وتعاني منه الأمرين، لكنها في ذات الوقت وأمام هذا الظلم والإجحاف متماسكة واقعية سوية صابرة محتسبة، لم تتحول إلى ذئب يريد أن ينهش عالم الرجال، ويبدد دنيا الذكور.

أعرف أنكِ قد ظُلمت كثيرًا، لكن لا تسمحي لهذا البلاء أن يصيبك بعقدة في تصرفاتك وتفكيرك وأقولك وإيمانك، حتى تصلين إلى مرحلة التجرؤ على الدين نفسه، وقدسيته وأحكامه، فترفضين جهلا منك أو من عقدة ملكتك، بكل آياته ومسائله التي ناقشت قضايا المرأة، ونشدت لها العدالة والحرية، أو خاطبتها في ظروف معينة لتحفظ كيان الأسرة واستقرار البيت.

هناك نساء متمردات معترضات على آيات القرآن في الضرب والقوامة وحق الرجل عليها في الانفصال، وحكمه عليها.. وهو اعتراض يقوده فهم سطحي لمراد الآيات، ولكنهن يبغضن ذلك، حتى ولو كان ظاهره خلاف باطنه، حين يوحي بالسطوة والتسيد والتحكم. إنها نفس الثورة، ونفس الجحود، ونفس التمرد، ونفس الانقلاب، الذي أصاب المرأة في الحياة الغربية، فتولد عن تمردها شر كبير، يوشك أن يفتك بالحياة ويقضي على البشرية، وصار النموذج الانقلابي الغربي، هو الهوى والرغبة لكل زوجة متنمرة متمردة على زوجها، وفي نفس الوقت، تطغى وتظلم مفاهيم دينها اعتقادا منها أنها تعاليم ومفاهيم تحيزت للرجل ونصرته عليها، وليس الأمر بهذه الصورة وهذا الظن الموحش.!

لقد نشأت موجة تطرف عتية غربية، قادتها المرأة تجاه هذه الحضارة التي شبت فيها، فوجدتها تُهينها وتحتقر كيانها، فلم تجد سبيلا لكسرها وتحديها، إلا عبر أفكار شاذة تجافي الفطرة الإنسانية، والتي كان منها:

1- قيام منظمة أنثوية في أمريكا اسمها (حركة تقطيع أوصال الرجال)

2- ظهور دعوات إلى حرية الاقتران والمثلية، الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة؟

3- نظرت المرأة للإنجاب على أنه عبودية وسموها عبودية التناسل.

4- قررت هذه الفلسفات أن الغيرة عاطفة برجوازية يجب التخلص منها، وأن العفة تخلف والحياء مرض.

5- جسد المرأة لا يملكه غيرها، فهي صاحبة التصرف فيه كيف تشاء.

6- اعتبرت الزواج سجنًا أبديًا للمرأة يقطع آمالها وأحلامها.

7- عدت الزواج مؤسسة لقهر المرأة يجب هدمها وإلغائها.!

8- سعت إلى استقلال المرأة في عالم خاص بعيدًا عن الرجال، ودعت إلى الشذوذ السحاقي بين النساء، والتحرر الانحلالي والذي يعد كارثة إنسانية.

لقد قامت هذه الحركات والدعوات كرد فعل رافض لكل ما في الغرب من تراث ديني واجتماعي وفلسفي وقانوني يعادي المرأة ويهينها، وتحولت من دعوات إصلاحية إلى دعوات فوضاوية تنقلب على كل شيء.

أفلاطون رمز العقل والفلسفة، كان شاذًا، ويرى الجمال في العلاقة بين الرجل والمرأة ويأسف لأنه ابن امرأة، وكان يزدري أمه.!

وكان يقول المرأة: ليست إنسانا كاملا فليس لها قضيب.! فهي تعيش آسفة لأنها لم تكون رجلا.!

حتى الكهنوت المسيحي واليهودي والذي يمكن له أن يكون فيه مجال للرفق، لم يرحم المرأة، ولم يمنحها التقدير كخِلقة إلهية، حينما نسب خطيئة آدم وأكله من الشجرة لها، فحكم عليها الرب بالآلام والأوجاع.

وعند اليهود يصلي اليهودي كل صباح صلاة الشكر لله، لأنه لم يخلقه عبدًا ولا وثنيًا ولا امرأة، وغير ذلك من المصائب والمهازل الكثيرة، التي دعت المرأة لحياة التهور والثورة والانقلاب على هذه الحضارة وهذا التراث التعيس الذي يضج بالإهانة والعنصرية والتمييز.

وهنا لا يسعنا إلا أن نستدعي الرجل لنقول له: انظر ماذا حل بالمرأة، وإلى أي نتيجة ساقها قهرك لها؟ إن الكفر يولد الكفر، والغلو يواجه بالغلو، إنك أيها الرجل بسوء معاملتك لها، تسببت في انقلابها لا على الدين والطبيعة، وإنما على الكون كله.!

لا تحتقروا المرأة!

المرأة التي يتجاهلها زوجها، تحتقره حتى ولو كانت تحبه.. نعم لا تتعجب فمنا من يستطيع أن يحب ويكره في وقت واحد لشخص واحد، معادلة كيميائية غريبة لكنها موجودة.!

هل تعرف لماذا تمردت ديانا على زوجها الأمير وحياة الملوك والقصور؟!

لأن الزوج الأمير كان منشغلا عنها بمهاراته وهواياته وأصدقائه، ويتعمد تجاهلها حتى في الحفلات الرسمية.. بل تعمد السخرية منها حين اصطحبها في عيد ميلاده (43) إلى معرض للصور، كان تحت عنوان امرأة بلا أهمية.. فكان قرارها الخطير الذي زلزلت به عرش الملكية البريطانية كلها، وانفصلت عن زوجها وصارت لها حياتها المستقلة، واهتماماتها الذاتية بعيدًا عن الأسرة الحاكمة.. وهذا الزوج الذي قيل: إنه غار منها لأنها خطفت منه الأضواء، ونالت حب البريطانيين فلم يسعه إلا الاستجابة لنداء غيرته!

نعم يمكن لك أن تحول زوجتك إلى قنبلة تنفجر في أي وقت، غير عابئة بأسرة ولا عشرة ولا أولاد ولا أي شيء!

اتقوا الله وعاملوا زوجاتكم بإنسانية.

نبينا العظيم ﷺ كان الآية المثلى في احترام المرأة، وتوقير شخصها وعقلها ورأيها، وقد أوصى المسلمين بقوله: استوصوا بالنساء خيرًا وقوله: رفقا بالقوارير، وامتدح الأم وقدر مكانتها وأوصى بها، لمكانها وعظيم عملها وفضلها، وكان يستمع لرأي زوجاته ومشورتهن في بعض الأمور، وكان يُعلن على الملأ حبهن تقديرًا لهن، ناهيك حن قوله في خديجة وما أدراك ما خديجه؟ ذلك الحب العظيم الممزوج بوفاء لا مثل له.. وسارع في ثورة حاسمة، يرد على من قالت له: إنما هي عجوز قد أبدلك الله خيرًا منها فقال:

"والله ما أبدلني الله خيراً منها، فقد آوتني حين طردني الناس، ونصرتني حين خذلني الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأمنت بي ورزقني الله منها الولد "

بعض الرجال يعامل زوجته بأنانية بشعة، فهي ملك له تماما مثل أي شيء مادي في الحياة يمتلكه ويتحكم فيه ويوجهه حيثما أراد ويريد، وكأنها قطعة ملبس أو دابة يمتطيها، ويظل طول حياته كابتًا لشخصها محقرًا لرأيها خارسا لصوتها، ومثله تربى على أن المرأة لا تصلح لشيء في الدنيا غير الفراش والطبخ والغسل والكي وتربية الصغار وإرضاعهن، ومثل هذا الرجل من الخطأ الكبير وصفه بأنه بلاء على أسرته أو زوجته، وإنما هو بلاء عظيم على الأمة بأسرها حين ينتج لها ذرية تخرج إلى الدنيا وهي تألف المرأة مقهورة مدفونة مذبوحة.!

إن القرآن الكريم عظم المرأة ورفع شأنها، حين كلفها بنفس مسؤوليات الرجل في تحمل الأمانة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى! بل أشاد بعقلها وحسن تدبيرها وروعة تفكيرها حينما وصف ملكة سبأ بقوله: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة)[1] ثم قال تعالى: (وكذلك يفعلون) تصديقًا على رأيها وأنها صائبة ومحقة وراجحة العقل حصيفة المنطق.

[1] - النمل: 34

إن احتقار المرأة بكل وضوح وصراحة ما هو إلا صورة مماثلة من وأدها في الجاهلية! فالجاهليون وأدوا جسدها ونحن نئد ذاتها ونقهر روحها ونمحو كيانها، وفي استطاعتها أن تكون للدنيا أقيم منا وأرشد منا وأرجح في العلم والفن والعمل والطموح.!

المرأة ملهمة أم ملهية؟

بعض المفكرين والعلماء والأدباء والحكماء والمثقفين ينظرون للمرأة، كونها ملهمة لما يبدعون ويفكرون وينجزون، وأنها خير معوان على طريق العلم والبحث والثقافة، تجد هذا كما ذكرنا كثيرًا في أناس أعلنوا على الملأ شكرهم لزوجاتهم، وأنهن السبب الكبير فيما وصلوا إليه، وأنهن السند الضخم الذي ركنوا واعتمدوا عليه في مسيرتهم الفكرية.

والحق أن المرأة التي تؤمن بزوجها المفكر، فإنها تُسهم إسهاما كبيرًا في تأدية رسالته، وبلوغ غايته، وارتفاع عبقريته، حينما تحمل عنه كثيرًا من مشاق الحياة وشواغلها، ليتفرغ لعمله وإبداعاته.

دائما ما أقف متأملا أمام هذا الإهداء الذي كتبه أنيس منصور لزوجته في مطلع كتابه (في صالون العقاد كانت لنا أيام) حيث كتب يقول:

"إهداء.... إلى التي لولا تشجيعها ما كان السطر الأول في هذا الكتاب، ولولا تقديرها ما اكتملت هذه الصفحات.. امتنانا عميقًا وحبًا أعمق: إلى زوجتي... أنيس منصور"

وأمام هذا النص الذي ينكر تمامًا ما أشيع بأن أنيس منصور من أعداء المرأة، وممن ينظرون إليها على كونها شيطان رجيم.!

هل لك أن تتخيل أن قطاعًا من العلماء وقفوا موقفًا سلبيًا من المرأة، فلم يرد عنهم تزوجوا واقترنوا بامرأة يجعلون منها شريكة حياتهم، وما كان ذلك لعلة فيهم أو لمرض مانع، وإنما لأن العلم كان روحهم، وطلبه كان همهم، فمن نهمهم له وحبهم فيه، صرف أرواحهم عن كل ما سواه، وشغل أمانيهم عن كل ما عداه، حتى غريزتهم وشهواتهم، ذابت في حبهم لطلب العلم الذي تحول بقدرة الله، أن يكون شهوتهم الأولى ولا شهوة تسبقه أو تعلو عليه.

بعض الناس أول ما يجري في ذهنه حينما يسمع عن هؤلاء العلماء، فيظن أنهم مصابون بالعجز الجنسي، ولكن القصة أكبر من هذا، وتتضح إذا ما نظرنا للكم الهائل والضخم، الذي تركوه وراءهم من تراث مبهر في حياة الأمة، فالإمام ابن تيمية مثلا لم يتزوج، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كتب للمسلمين ستة آلاف كتاب، فقل لي بربك: رجل كتب مثل هذا العدد الرهيب من المجلدات في فترة بسيطة من الزمن، ماذا تتصور من قدرته وجهده؟!

كذلك الإمام النووي – عليه رحمة الله تعالى – ألفَّ كتبًا عظيمة ضخمة، بالرغم أنه مات في الخامسة والأربعين من عمره، أيضًا ترك مكتبة عامرة، قد لا تجد في الشافعية كلهم من وصل إلى هذا المستوى من القدرة على التأليف، والنظر في المسائل والترجيحات وغير ذلك، وكذلك الإمام الطبري كان له هذا الذخر دون أن يتزوج.

فهؤلاء الأعلام الكبار الذين تفرغوا للعلم بقوة وانفراد، قدموا لنا تراثًا هائلاً وكمًّا كبيرًا من العلوم والمعارف، قد لا تتيسر لغيرهم ممن كانت له ارتباطات عامة كسائر المسلمين.

وهم ينظرون للزواج على أنه سنة وليس فرضًا، فقد قال ﷺ: "إِنِّي أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[1] وعلى هذا رأوا أن يستغنوا عنه، لأن فيه شغل عظيم عن غاية أسمى وأعظم، ومعنى قوله فمن رغب عن سنتي أي رغب عنها إلى طرق أخرى محرمة.

فلا يصلح هذا الحديث أن يكون دليلا على ذم العزوبة وترك الزواج مطلقا، إلا إذا ترك الزواج رهبانية وتقربا إلى الله بهذا الترك، وظنا أن العزَب أفضل من المتزوج، فحينئذ يشمله هذا الحديث، ويكون ممن تبرأ منهم النبي ﷺ.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: " المراد بـ "السنة" الطريقة، لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد: مَن ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وَفَوْهُ بما التزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل.

[1] - رواه البخاري ومسلم

وقوله: (فليس مني) إن كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه، فمعنى " فليس مني " أي : على طريقتي ، ولا يلزم أن يخرج عن الملة .

وإن كان إعراضا وتنطعا يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله فمعنى (فليس مني): ليس على ملتي؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر.

وفي الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه"[1]

وفي زماننا الحديث كان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وهو آية في العلم من هؤلاء الذين شغلهم العلم عن المرأة والتفكير فيها، ولما فوتح في هذا الأمر قال: إنه يؤثر العلم والدواة على العذارى الفاتنات، وأخذ ينشد شعرًا يقول فيه:

دعاني الناصحون إلى النكاح ... غداةَ تزوَّجت بيض الملاحِ
فقالوا لي تزوج ذات دلٍّ ... خلوب اللحظ جائلة الوشاحِ
تبسم عن نواشره رقاق ... يمج الراح بالماء القراح
كأن لحاظها رشقات نبل ... تذيق القلب آلام الجراح
ولا عجب إذا كانت لحاظ ... لبيضاء المحاجر كالرماح
فكم قتلت كميًّا ذا دلاصٍ ... ضعيفات الجفونِ بلا سلاحِ
فقلت لهم دعوني إن قلبي ... من العي الصراح اليوم صاحي
ولي شغل بأبكار العذارى ... كأن وجوهها ضوء الصباح
أراها في المهارق لابسات ... براقع من معانيها الصحاح

ولعلنا نجد العزوف عن الزواج كثيرًا ما يكون في حق العلماء، أما الأدباء والشعراء، فلا تجد فيهم هذا بكثرة لأنهم مبدعون وملهمون، والالهام والإبداع يحتاجان للمرأة، لأنها عنوان الجمال.

هناك شخصيات علمية وفكرية كبيرة قديمة وحديثة عزفت عن الزواج، وكان منهم:

ابن النفيس

المكتشف الأول للدورة الدموية بجسم الإنسان، وله إسهامات كبيرة في مجال الطب البشري وعلم وظائف الأعضاء، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء حتى الآن.

[1] - فتح الباري" (9/105-106)

ويعد كتابه الشامل في الصناعة الطبية من أضخم الموسوعات الطبية، التي كتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، وتمثل هذه الموسوعة الصياغة النهائية والمكتملة للطب والصيدلة في الحضارة العربية الإسلامية بالعصور الوسطى.

إسحاق نيوتن

كان له الفضل في اكتشاف قوانين الجاذبية وأسس علم الرياضيات والفيزياء، ويعد أحد أعظم علماء التاريخ لإنجازاته العظيمة في مجال العلوم.. لم يتزوج نيوتن، ولعل السبب كما ذكره البعض شخصيته الانطوائية الخجولة الناتجة عن طفولته البائسة، بسبب الإهمال في التربية الصحيحة من قبل والديه، وربما أنه لم يملك الوقت لفكرة الزواج، لانشغال عقله بالاكتشافات والاختراعات.

بيتهوفن

أصيب بالصمم في نهاية حياته، حتى إنه لم يسمع صوت تصفيق الجمهور له، عاش بيتهوفن ومات محبًا للموسيقى حتى شغله ذلك الحب عن حب النساء والزواج بهن.

أبو العلاء المعري

شاعر عباسي وفيلسوف عالم بالأديان والمذاهب وفي عقائد الفرق، وكان آية في معرفة التاريخ والأخبار، وقال الشعر وهو ابن 11 سنة، لقب بـ(رهين المحبسين) أي حبيس العمى والبيت، وذلك لاعتزاله الناس، كان زاهدًا في الدنيا، معرضًا عن لذاتها لا يأكل لحم الحيوان، ولا ما ينتجه من سمن ولبن أو بيض وعسل، ولا يلبس من الثياب إلا الخشن، ولم يتزوج المعري، بل إن شؤمه تعدى ذلك إلى أن أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد.!

العقاد

كان غزير الثقافة ذا حس أدبي عال، مما جعله ينافس الكبار في زمانه، حتى عد من رموز الأدب واللغة في القرن الـ 20، واختلفت الأقوال وتباينت في سبب عزوفه عن الزواج، رغم أنه كان مرهف الحس أديبًا رقيق المشاعر، ولكن قد يكون ذلك ضريبة انشغاله بالعلم والأدب حينئذ.

لقد نبغ كل هؤلاء وهم بعيدون عن دنيا المرأة، وكان هذا البعد اعترافًا وتقريرًا بأنها لم تكن لهم مُلهمة، ولم يكن لها في عبقريتهم أي تأثير.!

من الأقوى؟

أظهرت دراسة حديثة أجرتها جامعة ستانفورد الأمريكية شملت 72 ألف مريض بالولايات المتحدة، بأن النساء يتحملن حدة الألم أكثر من الرجال.

وأظهرت الدراسة بأن جسم الإنسان، يمكنه تحمل الألم بشكل تدريجي حتى يتأقلم معه مع مرور الزمن، وأن النساء لديهم قدرة كبيرة على التحمل في هذا المجال، بسبب خبرتهن الطويلة، خاصة ما يتعرضن له من ألم على مدار السنة، من الدورة الشهرية والحمل والولادة.

دراسة أخرى أعدها المركز الطبي في العاصمة التشيكية براغ، قالت: إن العامل النفسي له دور أساسي في تحمل الألم، ليتحول إلى تكوين مواد داخل الجسم، تساعد على تخفيفه ولا تقضي عليه تمامًا، وأن النساء يتحملن الألم بصورة طبيعية بشكل أفضل من الرجال، عن طريق الاستعداد النفسي، بينما يحاول الرجال التخلص منه بشكل علاجي ودوائي.

جرى بيني وبين بعض الزميلات الفضليات، نقاش حول المرأة والرجل، وأيهما أقوى من الآخر؟ وكان استدلالهم على قوة المرأة التي تفوق قوة الرجل، يرجع إلى تحملها ألم الولادة، أي ما أشارت إليه هذه الدراسة، وهو ألم لا يستطيع أعتى الرجال تحمله.!

قلت لهن: إن منحة الله لها في تحمل نوع معين وعظيم من الألم، لا يعني أنها أقوى من الرجل، فالأمر لا يُنظر له بهذه السطحية، التي يَغلبها العقل من أول جولة!

انظرن مثلا إلى هذه الأثقال التي يرفعها أشداء الرجال، لم نسمع يومًا أن المرأة رفعت أمثالها، أو أنها تطيق مثل ذلك، وهذه الحروب والجيوش التي تصنعها الدول، لا تكون المرأة في أغلبها هي العماد الذي تبنى عليه، وإنما الرجال لما لهم من القوة والبأس الشديد!

ولا أعلم لصديقاتي ماذا يريدان أن يصلا بهذا الظن، وماذا يبغيان من ورائه؟ هل يغالبان المنطق والمعقول ليثبتن المساواة بين الرجل والمرأة، حتى في القوة والشدة التي يعتقد الرجل أن الله تعالى ميزه بها واختصه عن النساء؟! فتأتي المرأة بتحمل الألم لتكون أقوى من الرجل؟!

ولنفرض أنه حقيقي، وأن المرأة أقوى من الرجل، فهل يعني أنها تقوم بوظائف الرجل؟ لقد أثبتت التجارب فشلها الذريع واضطراب حياتها، لو أنها قامت بكثير من وظائف الرجال.

إننا مازلنا نُنادي ونؤيد ونُقر بالفطرة التي فطر الله عليها كلا العنصرين، فلكل منهما خصائص يتمتع بها، لا توجد في الأخر ولا يقدر عليها، بعيدًا عن مسألة المساواة والمناداة بها ،تلك التي ينادي بها البعض بشكل خاطئ وصورة مغلوطة، فيوغلون فيها بشموليتها وتعميمها غاضين بصرهم عن هذه الخصائص التي ميز الله بها كل طرف عن الأخر، والتي لا يستطيع العنصر المقابل أن يقوم بما يقوم به نظيره، فما سمعنا يومًا أن رجلا ولد وأنجب، لأن هذه هي الخلقة والطبيعة التي جبلهم الله تعالى عليها، هناك مجالات كثيرة ننادي فيها بالمساوة، ولكن لا يمكن أبدًا أن ننادي بها فيما يصادم الطبيعة والخلقة، التي جعل الله تعالى عليها كل من العنصرين.!

قالت لي طبيبة حاذقة: إن القياس بهذا الشكل وعلى هذه الصورة أمر خاطئ، فلا يجوز أن أزن كيلو حديد بكيلو متر مربع من الأرض، لأنها وحدات قياس مختلفة تمامًا ويبقى السؤال: هل للمرأة التي يصفونها بأنها (7) رجالة في بعض، هل لها أن تقوم بما يقوم به الرجل العامل في الفاعل مثلا؟ طبعًا لا يمكن أبدًا!

إن الرجل في تكوينه أكثر قوة من المرأة بكثير، لكنها في بعض الأحيان، قد تكون أكثر تحملا للألم، وهذا لا يعد ميزانًا أو دليلا للقوة، فتحمل الألم ليس دليلا لقوة المرأة وتفوقها على الرجل.!

وفي السفر العظيم الذي خطه شيخنا الغزالي رحمه الله تحت عنوان (قضايا المرأة) ذكر أن هناك جنونًا حول المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في ميادين الأعمال، جنون يُلغي كل الحواجز والخصائص، وقد ذكر واقعة تستحق الذكر، حينما رأى البعض تشغيل الفتيات محصلات في الحافلات العامة والباصات في القاهرة التي تغص بحشود من البشر يزحم بعضها بعضا، فلا يكاد الرجل الجلد يجد طريقًا بينها فكيف بالفتيات؟

وعاشت التجربة يومًا واحدًا ولم تنجح.!

وفي عاصمة عربية رأى الشيخ شُرطية تنظم المرور، وهو عمل شاق لا يليق بها، وحكى له بعض أصدقائه: أن النساء في موسكو يغسلن الشوارع في الصباح، ويشتغلن بالأعمال كلها، وأن خصائص الأنوثة من نعومة ورقة، تكاد تختفي مع قسوة الواجبات التي تفرض على طوائف العاملات.

ونشر تقرير لمنظمة الصحة العالمية: أن المرأة في جميع الأحوال، لا يليق بها أن تعمل في المجالات التي لا تلائم طبيعتها، وأن تدخل في ضرب من ضروب الصناعة والحرف المضنية، فالمجالات التي تحسنها المرأة وتتناسب معها كبيرة ومتعددة، كالتعلم والطب والتمريض والكتابة والنشر والتدريس وبعض الوظائف غير المرهقة، أما أن تعمل أعمال الرجال كأن تكون شرطية وميكانيكية وعاملة في المصانع ومنظفة في الشوارع وسائقة للعربات وأدوات النقل، وما شابه ذلك، فلا يجوز أن تزاوله.

ونشرت بعض الدراسات الطبية أن اللاعبات الرياضيات النشيطات يصبن باضطراب في الدورة الطمثية، ويصبحن غير مخصبات، طالما يقمن بممارسة الرياضة، بمقدور كل امرأة أن تصبح نجمة رياضية أو لاعبة أولمبياد شهيرة، لكنها حينما تريد إنجاب طفل فعليها أن تتوقف، لأن هذه التمارين قد تجر عليها عواقب ضارة على الجهاز التناسلي."[1]

إن كيد النساء أعظم!

نعم إنه البلاء الكبير الذي يجب أن تتعوذ منه، تماما كما تستعيذ من الشيطان والشرور الموجودة في الحياة، فقد وصفه الله تعالى بقوله: "إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ"

وقد طلب يوسف عليه السلام أن يغيثه الله من كيدهن فقال:

" وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ"

وإذا أردت أن تتعرف أكثر على معنى كيد النساء، الذي تكون الغيرة شرارته الأولى، فلا أروع من هذا الدرس العملي للمرأة العجوز التي أورثها عمرها حكمة الدنيا.

فيحكى أن رجلاً ذهب في رحلة ليكتشف ما هو كيد النساء.. وفي طريقه التقى بامرأة عجوز تقف بجانب بئر فجلس إليها، وشرب من البئر، وبدأ يتحدث معها

[1] - راجع كتاب قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة

فسألها: ما هو كيد النساء؟ فوقفت المرأة عند البئر، وبدأت تبكي بصوت مرتفع حتى يسمعها أبناؤها، فيأتون ليقتلوا الرجل، ظنا منهم أنه يريد أن يدفعها في البئر.. فقال لها ماذا تفعلين؟!

وحاول إيقافها، وقال: أنا لم أتي إلى هنا لإيذائك! فقامت وأمسكت دلو الماء وسكبته على نفسها.. فتعجب الرجل منها وسألها: لماذا فعلتي هذا؟! وبينما هو يتكلم أتى الأبناء، فقالت العجوز: هذا الرجل أنقذني عندما سقطت في البئر! فقام الأبناء يشكرونه وفرحوا به كثيرا! فسألها ما الحكمة من فعلتك هذه؟! فقالت له: هكذا المرأة: "إذا أسعدتها أحيتك! وإذا أذيتها.. قتلتك."

كانت هناك زوجة قررت أن تعيش الزوجة الثانية في نفس البناية ذات الطابقين، فبقيت الزوجة الأولى وأولادها في الطابق الأرضي، وأتت العروس فاحتلت الطابق الأعلى، إن مشاعر الغيرة تعصر قلبها صباح مساء.. ووقع المحظور وأدركت صاحبتنا أنها مهما ذرفت من دموع الألم، فلن يفيد دمع ولا ألم، فالواقع يطل عليها بوجهه القبيح يومًا بعد يوم، وانتظرت إلى أن تراجعت أيام العسل قليلا مع العروس، ولما زارها زوجها استقبلته بترحاب وأعدت طعامه، وبادلته الحديث، ولم تذكر موضوع الزواج الجديد من قريب أو بعيد.

ومرت أيام، وكرر الزوج الزيارة، وبدأت في تنفيذ خطتها، وتلطفت في الكلام، وقالت له: إنها تتمنى له السعادة في حياته الجديدة، ولكنها تشعر بعدم أمان، لأنها هي وأولادها لا يملكون من حطام الدنيا شيئًا، حتى البيت الذي يأويهم، ولذا فهي تتمنى عليه أن ينقل إليها ملكية الطابق الذي تسكن إلى أن يكبر الأولاد، فتتنازل عنه لهم، ولم يرَ الزوج مانعا من نقل ملكية البيت لرفيقة عمره، ففعل.

ومرت بضعة شهور تكرر فيها بكاء أم العيال بين يدي زوجها، فسألها: ماذا تريدين؟ وما الذي يمكن أن أفعله لأرضيك؟ فقالت له بلا تردد: طلقني، وسأبقى مع أولادي، ولن يتغير شيء سوى أن أتحرر من الإحساس بالقهر.

وفكر الزوج في مشروع الطلاق، فلاحت بارقة أمل وهي أن يتخلص من محاولات الزوجة الثانية للاستئثار بوقته وماله، وحصلت الأولى على الطلاق، ولم يمضِ عام إلا وتزوجت وتفاهمت مع زوجها الجديد، على أن ينتقل إلى بيتها لكي يقاسمها الحياة، حتى لا يضطر الأولاد إلى ترك البيت الذي ألفوه والمدارس التي انتظموا بها سنين.

واستيقظ الزوج الأول من نومه ذات يوم ليجد عريس أم العيال، وقد احتل موقعه الجديد في البيت الذي تنازل عن ملكيته لزوجته الأولى.!"

وهذا الباب واسع كبير، والقصص فيه كثيرة متعددة، ولكن هناك من يقرر أن كيد الرجال أشد من كيد النساء، وقد قيل: من أشدّ كيداً: الرّجال أم النساء ؟!قال رجلٌ لنسوةٍ: إنكنّ صاحباتُ يوسف! فقلنَ له: فمنْ ألقاه في الجُبِّ؟! فقال: ومن ألقاه في السِّجن؟!

وللكاتب أدهم الشرقاوي تأمل قيم في المسألة فيتساءل:

أيُّ الكَيْدينِ كان أشد وطأة على يوسف، كيد الرّجال أم كيد النّساء؟!

ألقَت النسوةُ يوسف في السّجن من فرط الحب، وألقاه الرّجال في الجُبِّ من فرط الحقد!

الكيد إذاً ليسَ حِرفة نسائيّة كما يظنُّ الرّجال، والحديثُ عن الكيد على أنّه شأنٌ أنثويّ تهمة ألصقها الرِّجال بالنساء، نتيجة فهم ذكوريّ للنَّص القرآني «إنّ كيدكنّ عظيم»!

والآية وإن كانتْ تُثبت وبشكل قاطع وجود الكيد في النّساء، فإنّ «ولا تقصُصْ رؤياكَ على إخوتك فيكيدوا لكَ كيداً» تُثبتُ بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن للرجال حظاً وافراً من الكيد أيضاً!

وإذا كان كيدُ النّساءِ ممهوراً بالصِّفة «عظيم»، فإنَّ كيد الرّجال ممهورٌ بالمفعول المطلق «كيداً»، ومن فوائد المفعول المطلق كما يقول النُّحاة هو نفيُ المجاز!

لقد خلقَ الله المرأة أرقّ من الرّجل في المشاعر، وأضعف منه في البِنية الجسديّة، ووضع الكيد فيها سلاحاً تُداري فيه رقّتها، وتعوِّضُ به فارق القوة بينها وبين الرّجل، وكل من يحمل سلاحاً ليس بالضرورة أن يستخدمه، فالرجل الذي يحمل مسدساً لن يطلق النار على كل من يلقاه! الكيدُ ليس اختياراً أُنثوياً تُذمُّ عليه النساء، الكيدُ مرتبط بحسن التدبير بشكل عام، وليس مرتبطاً بالشر بشكل خاص، فالقادرة على الكيد عليكَ، قادرة على الكيد لك!

هي سيفٌ بيدكَ أنتَ تختار، إما أن تحارب به أو تغرسه في صدركَ!

فالحيّة ملمسها ناعم، ولكن جرّب أن تؤذيها، ستُظهر لكَ سُماً سيُنسيكَ نعومتها، والنساء كذلك! والأمثال بعموم اللفظ لا بخصوص السبب!"[1]

[1] - من مقال للكاتب أدهم الشرقاوي

وشاركه في هذا الداعية السعودي عائض القرني حيث قال: إن كيد الرجال ذُكر قبل كيد النساء، وأننا من علمهم الكيد، وهم تعلموا منا كيدنا بسبب الكره، وكيدهن بسبب المحبة، «ألم تسمع عن كيد الرجال؟ «يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً»، ما سبب الكيد في هذه الآية؟ وعلى لسان من ذُكر ذلك؟ ولمن ذُكر؟، وهل عندك علم أن «كيدكن» ذكر قبل كيد النساء، أي أن المقارنة واضحة، وهي أننا من علمهم الكيد وهم تعلموا منا كيدنا بسبب الكره، وكيدهن بسبب المحبة، فكيدنا مذكور بلسان سيدنا يعقوب عليه السلام وكيدهن مذكور بلسان العزيز فمن أكثر حكمة؟

ولا أعرف ماذا لو تعرض كل من الكاتبين الشرقاوي والقرني، لما تعرض له هذا التاجر المسكين فماذا كان سيقولان وقتها؟!

من طرائف حكايات كيد النساء ما رُوي انه ذات يوم، وضع أحد التجار لافتة على باب متجره كتب فيها (إن كيد الرجال عظيم) فمرت امرأة فقرأت اللافتة فلم تعجبها، فدخلت على صاحب المتجر كي تقنعه بأن العبارة خاطئة، وأخبرته بما تعرفه عن بنات جنسها وقالت له بأدب جم: (أعتقد ان العبارة بها كلمة خاطئة).

فقال لها: أتعنين أن كيد النساء هو العظيم؟ قالت: بلى.

قال لها: لا إن كيد الرجال أعظم من كيدهن.

فأخذت ترد له ما فعلته كليوباترا بالملوك، وامرأة العزيز مع سيدنا يوسف (عليه السلام)وغيرهن من قصص كيد النساء، في محاولة مستميتة منها كي تقنعه بالعدول عن رأيه وتثنيه عن فكرته، فما كان من الرجل لا أن ازداد تعنتا وإصرارًا وتمسكًا برأيه، فاستسلمت المرأة أمام عناده وتركته وهي تفكر، كيف تقنعه بعكس رأيه، ثم هداها تفكيرها إلى تدبير خطه محكمه تجعله يتوب ويرجع عن اعتقاده التي تراه خاطئًا، وبعد فتره دخلت عليه المتجر ولم تلمح له بموضوع الكيد، وإن كانت تنفد خطتها لتقنعه أن كيد النساء غلب ويغلب كيد الرجال، وبدأت تتردد كثيرًا على متجره، وتظهر له بعض الدلال الأنثوي، وبدأت تثير إعجابه بها، وذلك باستخدام رمي الشباك على الفريسة مع استعمال حبائل النساء ومكرهن في ذلك، وتطورت العلاقة بينهما حتى أصبح هذا التاجر مغرما بها، ولا يستطيع الابتعاد

عنها وهام في حبها، وذات يوم طلب يدها للزواج فوافقت، وأرشدته إلى مكان مسكنها وقالت له: إن ابي يختبر من يريد الزواج بي، فيقول لكل من يتقدم لي: إن ابنتي قبيحة المنظر، وعقلها غير سوي فلا تبالي بما يقول وتمسك بموافقتك، وعندما يرى منك ذلك الإصرار سيوافق على زواجك بي، فذهب الرجل المخدوع إلى ذلك العنوان، ودق الباب فاستقبله أصحاب البيت، وطلب الزواج من ابنتهم فأخبروه بخبرها، وما بها من العيوب، وعندما أصر الرجل على الزواج بها وافق أهل الدار وهم غير مصدقين، وفي ليلة الزفاف فوجئ العريس التاجر بأن زوجته ليست هي التي كانت تتردد عليه في متجره، وعندما علم بكيدها ومكرها، وتأكد له أن كيد النساء أعظم من كيد الرجال، ذهب إلى متجره مسرعًا وانتزع اللوحة وكتب مكانها "إن كيد النساء عظيم..عظيم..عظيم"

زوجات متوحشات

كان أحد الرجال في قريتي يتحدث عن زوجة أبيه حديثًا طيبًا، وكيف كانت تخدمه وإخوته، وترعى مصالحهم، وتعد طعامهم، وتغسل ملابسهم، وتساعدهم في كل ما يحتاجون من شؤون الحياة والمعيشة.

وهنا.. قال له صديق آخر: ألا ترى أن هذه الأخلاق، تكاد تكون نادرة في زوجة الأب وخاصة إذا كانت في الريف والقرى؟

فقال الرجل: الحق أننا لم نر منها شيئًا سيئًا.

وأمام هذه الشهادة لا يسعنا إلا أن نحمد هذه الزوجة التي رعت ربها سبحانه في أبناء زوجها، واتخذت منهم أولادًا لها، وعاملتهم بطيبة ونقاء وإخلاص، وفي الوقت الذي نجمد لها صنيعها.. نتعجب ونحتار من أخلاق أخريات! تشتعل النار في صدورهن لمجرد رؤية أبناء أزواجهن، وتتمنى إحداهن لو تقتلهم أو تحرقهم أو ترمي بهم في البحر غرقًا، وتظل طوال حياتها تنذر عقلها وتفكيرها وتدبيرها ووقتها، لتمكر بهم وتحيك لهم المؤامرات، وتسلط عليهم أبيهم، وتفتري عليهم بما شاءت من الجرائم والمنكرات، وكم سمعنا من قصص يندى لها الجبين، وترثيها الأخلاق، حينما تفقد زوجة الأب ضميرها ودينها وخلقها، فلا ترحم هؤلاء الذي حرموا نعمة الأم وافتقدوا الحنان.

إن بعض الآباء حينما تموت زوجه، يرفض أن يتزوج بأخرى خوفًا على أولاده أن تسيء إليهم زوجة الأب، وتحرضه عليهم وتشط في معاملتهم، وهي تضحية عظيمة لوالد يدرك نعمة الأبناء، ويقي أبناءه شر مصير وارد الوقوع.

لقد أنبأتنا الصحف عما في الحياة عن جرائم بشعة لهذه الشريحة من النساء، اللاتي تجردن من الإنسانية والدين، كان منها ما حدث في قرية (حاجر مشطا) مركز طهطا شمال سوهاج، حيث تجردت زوجة الأب من كل مشاعر الإنسانية والأمومة، وقامت بسحل ابنة زوجها البالغة من العمر عامًا ونصف تجرها على الأرض حتى فارقت الحياة، وذلك أمام شقيقتيها غادة وفرحة، وهددتهما بالذبح حال التحدث في هذا الأمر أمام أحد، وعللت زوجة الأب ارتكابها لهذا الفعل المشين، أن الطفلة الضحية كانت تلعب بالتراب.!

طفلة رضيعة عمرها عام ونصف يفعل بها هذا الفعل الشنيع؟!

أي حقد عقيم أكل قلبك الأسود، وحولك من بني الانسان إلى عالم الحيوان؟!

وكان هناك "فران" يعيش برفقة زوجته وطفلتيه "روضة" و"فاطمة"، وكانوا سعداء حتى ظهرت من أغوته وتزوجته، وأجبرته على طلاق زوجته الأولى وأم طفلتيه، ورحلت الأم وتركت طفلتيها مع أبيهم، وفي أحضان امرأة التي لا تعرف الإنسانية، لتتنفذ فيهم محكمة التفتيش، وأبشع صور التعذيب.. وسردت الطفلتان جانباً من قصص التعذيب والتنكيل على يد زوجة الأب، فتقول "روضة": كانت زوجة أبي تجردنا من ملابسنا في ليالي الشتاء وتصب علينا المياه الباردة، وفي مشهد أخر أكثر قسوة، كانت زوجة أبى تعصم عيني وتوثق اليدين والقدمين، وتضربنا بـ"سلك الكهرباء" وتكوي جسدي بسكين.

وتقول شقيقتها فاطمة، كنا كل يوم نتمنى الموت، حتى نستريح من الدنيا وما فيها، هربنا من المنزل ذات مرة، وأعادتنا زوجة أبي وحرضت والدي ضدنا، وانتهى الأمر بوصلة جديدة من التعذيب.

وتضيف الطفلة، زارتنا والدتي ذات مرة في المدرسة، وتوسلنا إليها إنقاذنا من زوجة أبي، وتأخذنا معها لنعيش برفقة زوجها وطفلها "يحى"، لكنها طلبت منا أن نتحمل، لأن زوجها يرفض ذلك، ولما ضاقت بنا الدنيا قررنا الهرب، تركنا المنزل في المرج، وتجولنا في الشارع عدة ساعات لا ندري لأين

نذهب، حتى استقر بنا الأمر أسفل منزل، بعدما حل بنا التعب وسقطنا على الأرض، لنجد أنفسنا أمام سيدة طيبة تدعى "أسماء"، عاملتنا أفضل من والدتنا، وذهبت بنا لقسم الشرطة نستنجد بهم من جبروت زوجة والدتنا، حيث أحسنوا استقبالنا وقدموا لنا الطعام وهدأوا من روعنا، وقبضوا على الوالد وزوجته.

وهذه زوجة أخرى تعدت على ابنة زوجها الطفلة الصغيرة بالضرب لأنها ضربت طفلها الصغير، فقالت الفتاة لها: سأخبر أبي بأنك ضربتني، فاغتاظت الزوجة الحمقاء من هذا التهديد، وقامت بطعنها بسلاح أبيض "سكين" محدثة إصابتها بـ2 طعنة بالرقبة، أودت بحياتها، ثم غطت الرأس والرقبة داخل كيس بلاستيك، حتى لا تتناثر الدماء، ثم وضعتها داخل جوال بلاستيك وتخلصت منها.

هكذا تفعل الغيرة والحقد والجهل في الإنسان، ليتحول إلى وحش بشع، حينما يتجرد قلبه من معرفة الله والخوف منه.

المرأة لا تنسى

لا أعرف هل تغفر المرأة وتنسى خيانة الرجل لها أم لا؟

يعرف الإنسان بأنه ما سمي بالإنسان إلا لنسيانه، وكثير من المحطات القاسية في حياتنا نتخطاها وننساها، ولكن في عمق الزمان وخزات لا يمكن نسيانها لشدة وجعها، فهل تصدق أيها الرجل رغم ابتسامتها لك وتغاضيها عن ماضيك أنها نسيت خيانتك؟

أشارت دراسة أمريكية إلى أن ذاكرة المرأة، تفوق ذاكرة الرجل 51 مرة، وقالت الدراسة: إن هذه النسبة تزيد إذا كان الحديث عاطفياً أو مؤلماً.

وفي آخر الدراسات الخاصة بالعلاقات الزوجية، جاءت التأكيدات أن النساء كلما تقدمن بالعمر أصبح استعدادهن للتسامح والغفران، أكبر فيما يتعلق بنزوات وأخطاء الشريك.

الدراسة التي تم خلالها سؤال أكثر من 1000 امرأة تجاوزن عمر العشرين، سئلن عن مشاعرهن حيال الخيانة تحديدا، سيما أن أغلب أسباب فشل العلاقات الزوجية بنسبة 8٪ هو أقدام بعض الرجال على الخيانة الزوجية، حسب آخر التقارير التي نشرت في إحدى الصحف البريطانية.

ونعرض هنا بعض الأقوال الحياتية، والآراء الواقعية، لأناس أدلوا عايشوا هذا الحدث، وبعضهن يتحدثن فيه من خلال معرفتهن بطباعهن.

تقول إحداهن: إن المرأة إنسانة شفافة ومتسامحة إلى حد كبير، وأي بيت لا يخلو من مشكلات أو فلسفات بين الزوج وزوجته، ولكنها لا تقبل الإهانة أو المساس بكرامتها.

ومن هنا تنقلب إلى وحش كاسر، لو حدث أي تمادٍ في هذا الجانب من زوجها أو غيره، ولكن هذا لا يعني أنها حاقدة أو كارهة، وأشارت إلى أن كثيرًا من الرجال أهملوا أبناءهم وقطعوا الإنفاق على أسرهم، ولكن الزوجة تظل صامدة، تجتهد لتوفير المناخ الإيجابي لأبنائها، وتعمل قدر الإمكان على إبعادهم عن أي صراع بينهما، وتحرص على وضع صورة طيبة للأب في ذهن الأبناء بما لا ينعكس ذلك سلبًا على مستقبلهم.

ويقول شاب متزوج: إنه يعيش تجربة صعبة مع زوجته، فهو يحاول التخلص منها لأنها فهمت خطأ أنه على علاقة مع إحدى زميلاته في العمل، ويضيف: حاولت أن أنفي هذا الأمر الذي مضى عليه ثماني سنوات، لكنني لم أستطع ذلك، وهي تحرمني حقوقي الشرعية، ولا تتحدث معي إلا في حدود ضيقة وللضرورة، وكذلك الأبناء بدأوا يستوعبون أن هناك خلافاً مستحكماً بيني وبينها.

وقال: بدأت أغلق تليفوني مجرد دخولي المنزل، لأن أي محادثة هاتفية، تعلق عليها بصوت عال وشتائم، ظناً منها أنني أكلم امرأة، وغالباً يكون الطرف الآخر في التليفون قد سمع كل ما قالته في حقي، وقد مللت جداً، وطلاقي منها يحتاج إلى الكثير من التضحيات، لكني لازلت أعمل من أجل إقناعها بالاستمرار معاً من أجل الأبناء.

وتقول أخرى: إن «الخيانة» لا يمكن لحواء أن تغفرها، ونساء كثيرات قد يتعايشن مع الوضع مدفوعات بحرص على بقاء الأسرة وتماسكها، إلا أن الأمر لا يخلو من جروح داخلية تنزف، والمرأة أكثر قدرة على الغفران والتسامح من شريكها الرجل، اذ إن العاطفة تغلب في حالات النزاع، لتقدم الأطفال والأسرة على نفسها وكبريائها، لذا قد تكون حواء هي الأكثر قدرة على إخفاء الألم وليس التسامح، وإن بدا الأمر وكأن الزوجة أو الشريكة، تخطت الأمر وعادت المياه إلى مجاريها.

وتقول ثانية: إنها لم تنس أي خطأ ارتكبه زوجها في حقها، وعلى الرغم من ذلك تتعامل معه بشكل طبيعي، لكن كلما اختلفنا في أي موقف، أعد له أخطاءه حتى لو بلغت 100 حالة، وأحيانا يستغرب هو ويضع يديه على رأسه، وأحيانا يثور بشدة، وقالت: كيف أنسى أخطاءه وأنا أعتبرها انتقاصًا من حقي؟! ولكن أحيانا أنا نفسي بعد أن أذكر له هذه الأخطاء وأعددها له، أندم على إصراري على تذكيره كل مرة بذلك.

وتظن المرأة أنها كلما ذكّرت الرجل بأخطائه السابقة، فهذا يعني إنذاره لأنها لم تنس، حتى لا يكرر هذه الأخطاء، ولكن الحقيقة أن هذا الأسلوب له آثار سلبية جداً في العلاقة بينهما؛ لأن الرجل يظن في زوجته الحقد والانتقام وغيرهما من الصفات التي لا تخدم هدفًا غير أنها تخلق مزيدًا من التوتر، وربما تقود الزوج إلى تكرار أخطائه، أو أنها ما دامت تحفظ كل هذه الأخطاء، فليس من الصعب إضافة أخطاء جديدة، ويصبح ما تردده مجرد كلام.

ويذكر أحد المتخصصين بقوله: إن المرأة الذكية لابد أن تنحني للريح إذا فسد زوجها أو انحرف، فلابد أن تحتويه بشتى الوسائل التي تساعده على العودة إلى عش الزوجية سالماً للقيام بواجباته تجاه أسرته، ولكن هناك البعض منهن يعتبرن الرجل الذي ينحرف أو يخطئ خطأ مقصوداً أو غير مقصود إهانة لهن ولكبريائهن، ويبدأن التعامل على إنهاء العلاقة الزوجية.

وهذه كارثة، ولكنه في الوقت نفسه أكد أن الغالبية يتمسكن بأزواجهن على الرغم من عللهم ومشاكلهم بخبرة ووعي كبيرين، مشيراً إلى أن الزوجة التي تغفر لزوجها حتى في الأخطاء الكبيرة، تكون قد انتصرت لنفسها ولأسرتها، لأن الرجل سيرى ذلك جميلاً ويذكرها دائماً بالخير.

ويقول أحد المعلمين: إن زوجتي طيبة وتتحمل أخطائي، ولكنها لا تنساها ولا تذكرها لي، وفي بعض الحالات إذا سألت عن تاريخ معين تذكّرني به من خلال مشكلة بيننا أو خطأ ارتكبته، إذا كان التاريخ متوافقا مع ذلك الموقف، أو عندما يخطئ جار أو أحد من معارفنا مع زوجته، ويكون مشابها لخطئي تذكّرني بأنه نفس ما حدث معها.

وعلى الرغم من ذلك فهي حريصة على عش الزوجية، وهي حريصة أيضًا على أن تكون علاقتها معي طيبة وحتى في حياتنا الزوجية تعيش حياة طبيعية جداً، ونفى أن تكون المرأة حاقدة، وقال إنها مثل البشر بينهم الحاقد والحاسد والطيب في أي مجتمع رجالي أو نسائي.

وأمام هذه المشكلة كانت هناك أصوات عاقلة حيث تقول إحدى السيدات: النصيحة التي أقولها للزوجات هي إن المرأة العاقلة يجب أن تتجاهل الأمر تماما, حتى لا يتمادى الرجل, مادام الزوج يتصور إن زوجته لا تعرف أنه يخونها, فإنه يحاول أن يداري، ولكن إذا أدرك الزوج إن زوجته تعرف أنه يخونها, فقد يستمر في خيانته وبشكل أكثر, لأنه لا يجد مبررا لكي يخفي خيانته عن زوجته, أما إذا تظاهرت الزوجة بجهلها بالآمر, في الوقت نفسه الذي تحاول فيه إرضاء زوجها, وإعطاءه المزيد من الحب والحنان، فأنها بالتأكيد, ستنجح في استعادته مرة أخرى, لأنه سيشعر بالقرف من الخيانة الزوجية لهذه المرأة التي تبذل كل جهدها لاستعادته إليها.

وتقول بث أتدرسون مستشارة الزواج البريطانية في دراستها عن هذه القضية: أول شعور ينتاب المرأة عقب معرفتها بخيانة الزوج، هو الغضب القاتل والإحساس بالمهانة وجرح الكرامة، وفقدان الثقة بالنفس والعجز عن الفهم، كل هذه المشاعر طبيعية تماما، ومع ذلك فانه لا ينصح أن تحاول المرأة أن تتخذ أي قرار في تلك الفترة, ذلك إن مشاعرها المتضاربة ستدفعها لمحاولة جرح الزوج والأخذ بالثأر مما يحطم أي احتمال لاستعادة الحياة الطبيعية بينهما، وتضيف الباحثة: إنه يجب على المرأة قبل اتخاذ أي قرار أن تحاول أن تحدد السبب الذي دفع الرجل للخيانة، فهل خانها مثلا أثناء فترة مضطربة في علاقتهما أم أنه زير نساء، المهم أن تدرك بينها وبين نفسها ما حدث ولماذا، بعدها يمكنها التحدث مع الزوج في الموضوع بهدوء لتحديد موطن الخطأ، فأسوأ أعداء الحب هو الصمت وعدم التواصل.

وتستطرد بث قائلة: من الضروري ألا تشعر المرأة أنها ملومة أو فاشلة، فخيانة الرجل لا تعني أن هناك عيبا في المرأة، ولكنها تعني ببساطة إن هناك شيئا ما خطأ في العلاقة، فقد يلجأ الرجل لامرأة أخرى لاستعادة إحساسه بالاهتمام والثقة بالنفس.

المرأة المسترجلة

إن أبشع صور الغلظة التي يظهر فيها الرجل، حينما تراه يُهين امرأة رقيقة حساسة، رهيفة المشاعر، أنثوية الطباع.. يتجبر عليها بوحشية وبأس.

صورة مؤلمة حقاً.

فمثل هذه لا تستحق غير الحنو عليها، والرحمة بها، والسمو في تعاملها، والدلال في الحوار معها.

ولكن.. ليست كل النساء على تلك الحال، فهناك من تسعد لقهرهن وكبتهن، كتلك التي تدمن التمرد على طبيعة الأنثى، وتحاولن مبارزة الرجل في ميدانه، وتريد أن تثبت للجميع أنها الأُجدر والأقوى في قولها وفعلها.

إنها المرأة المسترجلة التي لو امتلكت أن تمحو الرجولة من قاموس العالم لفعلت، ولكنها لا تملك غير أن تنتزع من الرجل بعض خصائصه وطباعه.

إن هذه الحمقاء، لا تعي أن جمالها الحقيقي في طبيعتها التي خلقها الله عليها، وأن صورتها الشاذة تخلع من قلب الناظر.. أي رأفة بها حينما يرى من يغلظ عليها، ويحطم رأسها الغبي المتحجر.

شاهدت الكثيرات منهن، في كثير من الأندية والميادين في العمل والشارع والأسواق، ولكن أغربهن تلك التي رأيتها في ميدان الدعوة إلى الله.

تمشي في حزم كأنها عسكر في جيش.

نظراتها ثاقبة قاتلة تشعرك أنها القاضي وأنت المجرم العتي.

إذا قدر لك وحدثتها.. تنهرك وتهينك، وتظهر عجزك وتقصيرك، وتستلذ بتأنيبك، بل ربما خطر ببالها أن تبرحك بيدها، انتقاماً من جنس الرجال جميعاً، وإهانة للرجولة البغيضة.

تراها تمسك كتاباً من أمهات التراث.. لا تعرف هي ولا أبوها أن تقرأ فيه جملة واحدة، ولكنها تقرأ وتوهمنا أنها تقرأ.. وعجباً من هذه السنوات التي قضيناها في الأزهر، نحاول أن نتعرف كيف نتعامل مع التراث وأمهاته؟ لتأتي المسترجلة بين يوم وليلة لتمسك بالكتاب، وكأنه ألعوبة في يدها! ولكنها في الحقيقة، لا يهمها أن تقرأ، بقدر ما يهمها أن تُعلِم الناظر إليها أنها أعلم من الرجل وأقدر وأفهم.!

إن الاسترجال وهم في المرأة.. فبقدر شدتها وإظهار نفسها في صورة المرأة الحديدة، إلا أنها تنهار لأول موقف ضعف يمر بها، فإذا بها تبكي وتنهار وتزرف الدموع تستعطف من حولها.

ربما أتراجع في بعض حنقي عليها حينما أقول: إن المسترجلة تحتاج لبعض العطف والشفقة ممن حولها، لأنها في الحقيقة مريضة تحتاج أن يطلع عليها طبيب نفسي يحدد لها الداء، ويصف لها الدواء، حتى تبرأ من داء الرجولة القاتل لأنوثتها، لتترك الرجل في حاله، يُسير الحياة بما حباه الله من خصائص وإمكانات.

والأدهى أن بعضهن تحسب أن استرجالها وعنادها للرجل تجذب انتباهه! ولكنها غبية مخطئة، فالرجل لا تستهويه تلك المتحولة، التي تتبرأ من جنس النساء، وإنما تستهويه المرأة بصورتها التي خلقها الله.. رقيقة حانية.

قد تكون المسترجلة نتاج أسرة تتسيد فيها أمها على أبيها، فخرجت تقلد وتحاكي، أو أنها وجدت هذه الأم ضعيفة مهيضة الجناح، تذوب في شخص والدها الغشوم، فخرجت رافضة متمردة.!

ولكن أكثرهن ضحية لتقاليد وموروثات رجعية في تفضل الذكور على الإناث، إن عقدة النقص تفجرت في كثير من الفتيات، لما يرون من تفضيل المجتمع للذكور في الحفاوة والمعاملة والتفضيل، إن الفتاة حينما تشاهد شقيقها الأصغر، وقد احتفى به والديه، ويحظى منهما بكل ألوان المديح والثناء، بينما يتم في الوقت ذاته تجاهلها واحتقارها، مهما حققت من عظائم وجهود، فإن هذا السبيل يسوقها لتتخلى عن طبيعتها وأنوثتها، في المظهر والحديث والتعامل، بين من يحيطون بها حتى تعوض ما تشعر به من نقص تعيشه.

إنها تريد أن تصنع لنفسها شيئاً يثبت لها دور ومكانة، تريد أن يكون لها كياناً وتأثيراً، ولكنها اتخذت سبيلاً مدمرة تقضي عليها وتدمرها.

وإذا لم يتخل المجتمع عن تقاليده الراكدة في نظرته للأنثى، فسوف يستمر في إنتاجه لصناعة المسترجلات، اللاتي هن من ضحاياه وسلبياته.

لا شك أن الرجل هو الذي من سمح للمسترجلة أن تصل لما وصلت إليه، وهو في موقفه لا يقل عنها قبحاً، رفض رجولته وقلب حقائق الطبيعة، حينما تركها تستأسد عليه.

إن اللحظة الوحيدة التي تنكسر فيها هذه المسترجلة، يوم أن يخبئ لها القدر صداماً برجل جبار يفتك بها، ويزلزل كيانها، في موقف عاصف، لينكشف عنها ما تزيت به، من لباس هاو رخو، فتعود لطبيعتها سريعا باكية ضارعة مسكينة.

ولكن هل يا ترى لو وجدت المسترجلة مثل هذا الرجل في طريقها، وعلمت عنه صرامته وشدة بأسه، أتراها تناوئه، ويستدرجها طبعها القاسي لنزاله، أم تبتعد عنه وتحذره؟

كثيرات منهن سيغلب فين الجبن صفة الاسترجال، لأنهن لا يجدن أنفسهن إلا بين ضعاف الرجال.

ولكن بعضهن يعشقن التجربة، فلعل الرجل الجبار أن تصيبه رقة فيرأف أو يتعفف عن نزالها، ويتركها صريعة لمرضها النفسي الذي لا تشفى منه أبداً.

حينما ظهر كتاب العقاد (المرأة في القرآن) والذي هاجمها فيه هجوماً عنيفاً، ووصفها بما لا تقبله من الصفات المستفزة المهينة.. تجمعت حينها أحلاف النساء على الكيد للعقاد، وأخذن في دراسة الموقف، كل واحدة منهن تغري أختها بالرد على الكاتب العملاق، الذي أهان المرأة.

لابد من إهانته كما أهانها..

لابد من إذلاله، حتى يعرف خطأه ويعتذر.

ولكن هيهات هيهات. فما مثل العقاد من تلين له قناة، أو ينحني أمام أعتى العمالقة فضا عن حفنة من النساء تجمعن يكدن له، إنه الكاتب الجبار الذي تتحطم على سنان قلمه حكومات وزعماء.. أنى لمثله أن تهوي به امرأة، أو تحرجه مسترجلة.؟!

كلهن خافوا.. جميعهن جبنوا وتراجعوا عما كانوا يأملونه.. إلا واحدة فقط ترجلت لتنوب عن الجميع.. لقد رأت في نفسها نداً للعملاق وتستطيع مواجهته، وهي الدكتورة بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن).. ولكن أين الأخريات؟

لقد كن جميعاً أعقل منها، فهذه سهير القلماوي يتضح موقفها من حديثها مع بنت الشاطئ حيث قالت لها: يا عائشة خليك بعيد أسلم.

أمينة السعيد رئيس تحرير حواء تعتذر وبشدة

الدكتورة منيرة حلمي تنسحب قائلة اعفوني من الرد. عندي أبحاث.

الدكتورة لطيفة الزيات تعد بالرد بعد يومين. لكنها تنسحب بعد اليومين قائلة: معلش أنا والنبي أصل العقاد.

صوفي عبد الله، تهرب من الرد على ما جاء في الكتاب، حيث تقول: إنها عارضت من قبل ما جاء في الكتاب باسم مستعار وهو (هذه الشجرة)

أما الإذاعية آمال فهمي فوعدت بالرد، ولكنها لم توفي بما وعدت.

أما فاتن حمامة فوعدت بأن تقرأ الكتاب بعناية واهتمام لأنها لازم ترد.. فهذا كلام لا يحسن السكوت عليه، لكنها تعود لتقول: لا ياخويا.. اكتب في الموضوع تاني.. أصل العقاد لسانه طويل.

ولم يبق بالميدان غير بنت الشاطئ التي ردت وكتبت ووضعت نفسها في وجه المدفع الفتاك، والذي لا شك أصابها منه إصابة بليغة، حيث سئل العقاد عما كتبت بنت الشاطئ فقال بسخرية لاذعة:

(إن كاتبة المقال لا أضعها في عالم النساء ولا في عالم الرجال وإنها- أي بنت الشاطئ- مثله الوحيد على تناقض المرأة.)

المرأة هي الشيطان

لا شك أننا في هذه الأيام، في حاجة ماسة أن نُذَكّر بين الحين والحين، بتاريخنا وتاريخهم، وماضينا وماضيهم، وقديمنا وقديمهم..

نُذَكّر أولا أولئك الذين فقدوا الثقة في تاريخ أمتهم وحضارتها وتراثها، ونذكر ثانيًا أولئك الغربيين الذين لا يفتأون يختلقون الزيف على ماضينا الشاهق، وهويتنا السامقة.

انظر لهذا الاتهام المباشر الذي يُعدونه من أوائل السهام التي يهتكون به عرض هويتنا.. إنها المرأة، التي مازالوا حتى اليوم يرددون زيفًا وزورًا: أن الإسلام اضطهدها وأهانها، وألغي وجودها.

ويحاولون جاهدين أن يصوروا للدنيا كلها، كم أن هذا الإسلام دين الظلامة، ونحلة الضلالة، ومعتقد المتخلفين الرجعيين، لأنه يقهر المرأة ويقزم كيانها، ويذبح شخصيتها، ويلغي وجودها.. وكذبا ما قالوا.. فلم يكن ولم يأت ديننا، إلا وإعلاء شأن المرأة أحد معالمه التي قرع بها ظلام الجاهلية، تلك

المرأة التي كانت توأد فأحياها، وكانت تورث فورثها، وكانت مهمشة لا قيمة لها، فجعل لها المشورة والمشاركة الفاعلة في قضايا الأمة الكبرى دينًا ودنيا.!

ولكني هنا لا أحب دومًا سياسة الدفاع والاحتجاج، وأنها من قبيل الرد والتبيين والتوضيح، وإنما نلجأ اليوم إلى سبيل الهجوم، فنوجه سهامنا الخارقة المارقة، إلى جوف تاريخهم وعرض ماضيهم وقديمهم، حتى يظهر للدنيا سواده وقتامته.!

وكنت في هذا المقال قد عزمت أن أضع عنوانه وأسميه: (قديمنا وقديمهم) لكني وفي أثناء البحث، رأيت ما ألح على خاطري أن أسميه بهذه التسمية المثيرة، حينما تبين لي هذا الغلو الفاحش في ظلم المرأة.!

كانت المرأة في تاريخ اليونان القديمة، معزولة عن المجتمع، تعيش في أعماق البيوت، وكانت كسقط المتاع، تباع وتشترى في الأسواق، مسلوبة الحرية مأخوذة الكيان، بل وُجد في تاريخ قدمائهم: "يجب أن يحبس اسم المرأة كما يحبس جسدها" ولم تكن المرأة عند الرومان القدماء بأوفر حظًا من المرأة اليونانية، فالنظام الأبوي لدى الرومان شديد الوطأة على الأسرة، خاصة المرأة؛ فرب الأسرة هو رئيسها الديني وحاكمها السياسي، ومديرها الاقتصادي، بل كانت الأنوثة في معتقد الرومان القدماء وتصورهم، سببًا من أسباب انعدام الأهلية، كحداثة السن والجنون، وقد عرف الرومان نوعًا من الزواج اسمه الزواج بالسيادة، وبه تدخل المرأة في سيادة زوجها، وتصير في حكم ابنته، وتنقطع صلتها بأسرتها الأولى، وقد بلغ من سيادة زوجها عليها، أنه كان يحاكمها في أي تهمة تُتهم بها، ويعاقبها بنفسه، وكان له أن يحكم عليها بالإعدام في بعض التهم.

وقد غالى المسيحيون القدماء في بعض التشريعات الكنسية، التي تؤكد تدني مستوى المرأة واضطهادها، فلقد غالى رجال الكنيسة في إهدار شأن المرأة، حينما كانت من أهم موضوعاتهم التي كانوا يتدارسونها: هل المرأة إنسان له روح؟ كما انتشر عندهم الاعتقاد بأنها جسد بلا روح، واستثنوا من ذلك مريم العذراء، لأنها أم المسيح عليه السلام، حتى أن بولس صرح بأن المرأة منبع الخطيئة وأصل كل شر، ووراء كل إثم ومصدر كل قبيح، وكان القديس بونا فنتور يقول لتلاميذه:

"إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم رأيتم كائنًا بشريًا، بل ولا كائنا وحشيًا، إنما الذي ترون هو الشيطان بذاته"

فهل تعي المرأة ما كانوا يعتقدونه فيها هؤلاء المغفلون؟

وكيف كانت تتأول عليها هذا العقائد الباطلة؟

أم أنهم اليوم لا هم لهم إلا أن يقلبوا في صفحات (الإقناع لحل ألفاظ أبي شجاع)[1] ليقتنصوا منه الفتاوى والاجتهادات، التي يظهرونها شاذة على خلاف ما هي عليه، ومن ثم يطعنون في ديننا ويهدمون تراثنا الزاهي المبهر.؟!

تذكروا أنين المرأة

قدر لي منذ عامين أن أزور كينيا، حقيقة كانت بلادًا جميلة، وأخبرني صديقي أن بها مقاطعات لا يوجد شبيها لها في أوروبا.. الأجانب والهنود ينتشرون هناك بكثرة وتوجد معابد للسيخ، سحت في كثير من شوارعها، ولكني ندمت كثيرا بعد خروجي منها، حينما قرأت فيما بعد أن في العاصمة نيروبي أول قرية نسائية خالصة في العالم، وهي قرية محرمة على الرجال، ترفع شعار (فليذهب الرجال إلى الجحيم) أسستها نساء مضطهدات لم يجدن حلا غير هجر الذكور، وتأسيس مجتمع أنثوي منعزل، وهي تحظى بمباركة الحكومة الكينية التي توفر لها حماية رسمية، بل تعتمدها كوجهة سياحية تساهم في الاقتصاد العام.. والسؤال المدهش الذي قفز إلى ذهني فور قراءتي عن هذه القرية هو، لماذا لا تقام مثلها في بلادنا حتى تنقذ كثيرًا من النساء اللاتي وقعن تحت سطوة رجال سفلة ظلمة حقراء منحطون، استعبدنهن وذاقت المرأة منهن صنوف الأسى والكبت والظلم والجور والهدم.

إنني أؤكد لكم أن هناك نساء كثيرات يحتجن لمثل هذه القرية حتى يشعرن بحياتهن ونجاتهن من الظلمة الجبارين، فلا ملجأ لهن ولا أهل ينصفونهن.

ربما يهب من ينكرون ذلك ويرونه ضد الدين وضد الفطرة أو هروبًا من واقع الحياة، وأن الطبيعة تجافي هذا، ولكنهم وهم يتكلمون بغضب شديد، يغيب عنهم أنين المرأة المظلومة التي تنهد الجبال لأهاتها، وتذوب الأرض كمدا لألمها.

[1] - كتاب في الفقه على المذهب الشافعي كان يدرس على طلاب الثانوية الأزهرية

أعرف امرأة مات عنها زوجها وهي صغيرة السن، لكنها رفضت الزواج ليس زهدًا منها في الرجال، ولكن زوجها السابق، ولد لديها عقدة من الرجال فصارت تطيق العمى ولا تطيقهم، وكانت مجرد فكرة اقترانها برجل، تصيبها بنوع من الاختناق والضيق الشديد.

وهكذا خالفت الفطرة والطبيعة، وداست على حاجتها كأنثى لما فعله بها الرجل، زوجها الذي لم يكن يعرف معنى الرحمة، ولم يكن يعاملها كبشر.

لقد تأسست قرية أموجًا وهي كلمة تعني الوحدة، على يد نسوة عرفن معنى القهر، وذقن مرارة الرجال، فلم يطقن الحياة معهم وسارعت بالهروب لعالم أفضل، عالم لا يرين فيه صورة الرجل الذي ظلمهن ودمر حياتهن، كان هؤلاء النسوة ممن عانين الاغتصاب أو الاضطهاد أو قسوة الازواج، رأين أن هذا العالم لا يمكن أبدًا أن يسعهن مع الرجال، فسارعن إلى هذه القرية يرفعن بها هذا الشعار.

قرأت أن هذا التحالف النسائي لم يكن فريدًا من نوعه عبر التاريخ، وإنما كانت هناك صور مشابهة، فهناك مثلا قبيلة مينارو (في جبال الهملايا) التي تسيطر فيها النساء على الرجال، لدرجة تستطيع الواحدة منهن الزواج بعدة رجال وحشرهم في غرفة واحدة، وفى منطقة داهومي الأفريقية (وتدعى اليوم بينين) شكلت النساء في بداية القرن الثامن عشر، جيشًا نظاميًا قويًا دخل في حرب شرسة مع جيش الاستعمار الفرنسي عام 1892، أما في أمريكا اللاتينية، فقد تعرض القائد الإسباني فرانسيسكو دو أوريلانا عام 1542 إلى هزيمة قاسية، على يد مجموعة من النساء الشرسات (دعاهن بالأمازونيات).

أما أقرب من ذلك، فقررت النساء في قرية سرت التركية (قرب مدينة انتاليا عام 2003) مقاطعة أزواجهن وطردهم من القرية، وحرمانهم من غرف النوم وعدم التنازل تحت أي ظرف من الظروف، ويعود السبب إلى تعب النساء من حمل المياه إلى القرية من مسافات طويلة، بواسطة جرار ضخمة ومطالبتهن الرجال بالمشاركة في هذا الجهد، أو على الأقل مخاطبة الحكومة لمد أنابيب للقرية ولكن بلا فائدة، وهذه الحادثة بالذات نموذج لحوادث كثيرة، امتنعت فيها النساء أو حُرمت فيها الزوجات بصفة اختيارية أو قهرية.

لماذا لا ندافع عن مثل هذه الحالات أو المحاولات باعتبارها ظاهرة صحية للمرأة، التي كان يمكن لها لو لم يوجد هذا الحل، أن تصاب بالجنون أو الاكتئاب أو الانتحار، أو حتى قتل زوجها؟

هناك رجال سمعت عنهم وعن ظلمهم، وأقسم أنهم لا يستحقون إلا الحرق بالنار أو تمزيق جلودهم بالسياط، أو الرمي بالرصاص، من فرط طغيانهم وجبروتهم على المرأة، التي أوصانا النبي الكريم ﷺ بها فقال: رفقًا بالقوارير، وكنت وأنا الدارس العليم، أعلم تفسير كلمة القوارير بأنها الزجاج وهو بطبعه رقيق، حتى فسرته لي إحدى الأخوات بأن القوارير أرق أنواع الزجاج.

إن مأساة الرجل مع المرأة، عار على المجتمع إذا لم ينصفها من براثنه، ويأخذ لها حقها من ظلمه، ومن يعايش آلام المرأة وما تجده من ظلم الرجل، يدرك قيمة هذا الكلام، بل قيمة هذا الحل وضرورته.

وليس هذا الكلام لكل امرأة حدث بينها وبين زوجها خلاف أو مشكلة، فتلك طبيعة الحياة ولكنه كلام خاص لحالات خاصة، حالات توشك أن تقدم على الانتحار من فرط من تجد من تعاسة الرجل وشؤم الاقتران به.

المرأة حينما تدفع للمجد

شكت إلى هذه المرأة من زوجها الغادر الخسيس، وذكرت لي كيف ضحت من أجله وساندته ووقفت بجواره ودفعته دفعًا لصدارة المجد والنجاح، ولم يكن نصيبها بعد هذا الكفاح إلا الغدر والفراق والطلاق.!

وليس حديثي هنا عن غدر الرجل وتضحية المرأة، ولكن الأكيد هنا أن نذكر بهذه النعمة الإلهية، التي يعطيها الله تعالى للرجل، حينما يهبه زوجة، متحمسة تدفعه للنجاح دفعًا، وتكون له كالوقود الذي ينطلق به للأعالي.

لا تتعجب حينما تجد عالما كبيرًا أو مفكرًا عظيمًا أو مخترعًا، ينسب الفضل لزوجته، ويؤكد أنها من يرجع إليها الفضل فيما هو فيه.. فقد رأينا كثيرًا من هذه الاعترافات التي يؤكد أصحابها أن وراء كل عظيم امرأة.

بعض الرجال يكون خامل العزيمة، راكد الحماسة، وإذا به يصعد للذرى حينما يقترن بزوجة باسلة مقدامة متحمسة، تشد من أزره تعوضه ما نقص من صفات الحماس وتوثب العزيمة.

ما أروع أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وهي تدفع نبي الأمة نحو غايته وتزود عنه وتفديه بمالها وعزها، فلا تبكته أو تنهاه وإنما تحفه وتؤمله، أليس من حق عنصر النساء أن يفخرن بأن أمهن خديجة كانت أول من نصر الإسلام.!

دائما أتساءل.. هل كان يبلغ طه حسين ما بلغ لو لم تقف وراءه سوزان؟

إن مثال هذه المرأة التي نحكي عنها ونتمناها في حياتنا لقدرتها على صنع المعجزات، وتحويل هذا الرجل الخامل الهابط إلى بطل تتحدث به الركبان، لتعطي درسًا للمرأة اليوم ألا تهتم بمطبخها فقط، ولا بجمالها فقط ولا بزينتها وملبسها فقط، ولا بأولادها فقط، وإنما عليها دور أكبر من هذا كله، وهي أن تكون ملهمة لزوجها تبث فيه فوران العزيمة، وثورة الإقدام، والرغبة في الكفاح والعمل.

إن في المرأة خير كثير لا ينفع الزوج وحده، وإنما يمتد نفعها إلى الأمة والوطن والمجتمع والحياة، لو أنها استثمرت في المسار الصحيح، أما هؤلاء الذين يتخذون منها موقفًا عدائيًا فجاهلون لا شك بقدرتها على تحقيق البطولة.. وكم يبرق أمامي جهلهم وهم يلتفون حول ذلك الذي يتغنى بقول الشاعر:

لا تأمنن إلى النساء ولا تثق بعهودهن

فرضاؤهن وسخطهن معلق بفروجهن

يبدين وداً كاذباً والغدر حشو ثيابهن

بحديث يوسف فاعتبر متحذراً من كيدهن

أو ما ترى إبليس أخرج آدمًا من أجلهن

وأحيانًا تدفع المرأة للمجد، ولكن بغير ما نعهد من صور التحفيز والتشجيع، ولكن بالكره والحقد والكراهية والإعراض، فربما تحدت الرجل وكانت خصمًا له، أو كان لها دور في جراح نفسه واستدعاء تحديه، فيعدو عازمًا أن ينتصر على الدنيا كلها حتى يلتئم جرحه، ويثبت لها أنها خسرت كثيرا في الاستهانة به والتفريط فيه.

هناك قصة شهيرة تعكس هذا المعنى وتجسده، حينما أحب شاب فقير ابنة أحد الأثرياء، وحينما صارحها وطلب زواجها سخرت منه، وقالت له: إن دخلك لا يساوي ما أصرفه في اليوم الواحد، كيف تتوقع مني أن أتزوج شخصًا مثلك؟! كيف تتخيل مني أن أحبك.؟! اذهب وابحث لك عن فتاة أخرى تناسبك وانسى أمري.

كانت كلمات قاسية جارحة، آلمته كثيرًا وشكلت مصيره ومستقبله، وبعد عشر سنوات التقيا صدفة في أحد مراكز التسوق، فعرفته وقالت له: أهلا كيف حالك؟ أنا الآن متزوجة من رجل ذكي وغني وراتبه أكثر من (15.000) دولار، فهل يمكنك أن تتفوق على ذلك؟! واستطاعت بكلماتها البغيضة أن تجدد الجرح في نفسه مرة أخرى، حينما ذكرتها بوخزاته القديمة، حزن كثيرًا من كلماتها لأنه كان ومازال يحبها، ولكنه أمام سياط كلماتها، استطاع أن يحبس دموعه ويكتم حزنه، وسرعان ما جاء زوج المرأة الذي أصيب بالتلعثم والمفاجأة، وقال لزوجته: أقدم لك رئيسنا في العمل ومالك المشروع الذي نعمل فيه، وتتجاوز قيمته 100 مليون دولار، صُعقت المرأة مما سمعت وأصابها الذهول، وظلت صامته تستمع لكلمات زوجها، وأراد الرجل الجريح أن ينصرف واستأذنهما، وأخذت الزوجة المدهوشة تسأل زوجها: أكان هذا حقا على نحو ما قلت؟ فقال لها: نعم إنه رجل ثري جدًا ومتواضع، لكن حياته كانت قصة حزينة جدًا، حيث يقال: إنه أحب فتاة لكنها

رفضته لأنه فقير، فعمل بجد وكفاح حتى صار اليوم من أصحاب الملايين، لكنه إلى اليوم لم ينس ما حدث، وظل بلا زواج، وكم ستكون محظوظة من ستتزوج هذا الرجل الثري.

في فيلم (إكس لارج) لم يستطع البطل أن ينحف بالتقريع والتشجيع والمرض، شيء واحد فقط جعله يحقق المعجزة، إنها المرأة وحبه للمرأة.

فهل تدرك المرأة أنها قادرة على صنع المعجزات في حياة الرجل؟

بل يبقى السؤال الأهم: كيف تكون المرأة من هذ الطراز الذي يدفع الرجال للصدارة والمجد.؟

المرأة في حياة العظماء

ذكر أحد الأصدقاء أن عمر المختار ماتت زوجته قبل القبض عليه وإعدامه، فبكى عليها بكاء شديدًا، فقالوا: ما الذي يبكيك فيها؟

قال: كنت إذا عدت من غزواتي ضد الإيطاليين، ترفع باب الخيمة عاليًا

فلما أسألها عن سر ذلك؟

تقول: حتى لا تنحني إلا لله!

كانت تريدني شامخًا لا أهاب الأعداء

العفيفات يصنعن العظماء.

بعض الرجال يكون فيه من سمات العظمة ما لا يدركه هو من نفسه، وهنا دور المرأة النبيهة الذكية، التي تكتشف مواهب زوجها وتحاول أن تزكيها وتدفعها للنمو والظهور، والزوجة الأبية الفاطنة هي التي ترى زوجها دومًا نصفها الأخر عزيزًا شامخًا عليًا لا مثيل له في دنيا العظماء، والمرأة التي لا ترى في زوجها شيئًا عظيما، فما أتعسها وأتعسه، حينما يشبون على حياة فاترة مملة، لا حماس فيها ولا نداء فيها لأي شيء إيجابي يثريها ويجعل لها مذاقًا.

حينما رشح توفيق الحكيم لنيل قلادة النيل، وتسلمها من عبد الناصر شخصيًا في حفل كبير به جمع كبير من المكرمين، وهنا وأثناء خروجه وتجهيز نفسه للحفل قالت له زوجته: احذر أن تحني رأسك أمام عبد الناصر، وأنت تتسلم القلادة، كررتها أمامه أكثر من مرة، فسألها الحكيم: وكيف لا أنحني برأسي أمامه، وهو رئيس الجمهورية؟! فقالت له في ثقة: أنت في عيوني أعظم من الرئيس، أنت أهم رجل في الدنيا، ولا تنس نصيحتي لك عندما ينادون على اسمك.

ويذكر أن زوجة الحكيم، جلست أمام التليفزيون تنتظر اللحظة التاريخية، وشاهدت الحكيم وهو يقترب من عبد الناصر، في خطوات ثابتة، ووقف أمامه كالصقر، لم تنخفض رأسه، وصافح الرئيس، وقامته مرتفعة، ثم تسلم القلادة، ومازالت قامته مشدودة، حتى عاد إلى مقعده وسط تصفيق الحاضرين.

وقالت زوجة الحكيم:

"تابعته في التليفزيون، ولاحظت أنه لم ينحن برأسه أمام الرئيس، وسعدت بذلك أكثر مما سعدت بالوسام".

وعن دور المرأة في حياة العظماء، وكما قيل: وراء كل عظيم امرأة لا يمكن أبدًا أن نغفل دور زوجة العلامة المفكر الراحل محمد عمارة، تلك الزوجة التي سجلت الماجستير، ثم لم تكمل لتتفرغ لمساعدة زوجها في بحوثه ومسيرته العلمية والفكرية بدلا من الماجستير، وكانت تقف على خدمته إلى آخر لحظة من حياته.

وقال لها والدها ناصحًا: يا بنتي لا تسجلي ماجستير، انتي زوجة رجل مبارك، عنده علم كبير ومستقبل نافع للناس، تفرغي وساعديه، وخدى ماجستير في بيتك وعلم زوجك، فنفذت نصيحة والدها رحمه الله تعالى.

إن العظماء الذين يرزقون بمثل هذه النوعية من النساء، فإنني أعتقد وأؤمن أنهم يحتفظون ببريق عظمتهم للنهاية، فمثل هذه المرأة تكون الحارث الواعي لمواهب زوجها العبقري.

لكن بقي أن نلمس خيطًا رفيعًا ومهمًا في أذهان بعضهن، حينما يتهمن هذه السطور بأنها تغمس السم في العسل، وتتجاهل من المرأة أن تكون عبقرية وسامقة كالرجل تماما، وقد تؤدي رسالتها في الحياة بما يفوق مكانة الرجل ودوره..

وأقول لهن: أنا لا أنكر هذا أبدًا، وإنما أرصد بكلامي صورة حاضرة ينطق بها واقعنا، وتسجلها حياتنا، فلا ندعوا أبدًا لطمس عبقرية المرأة، وإنما نشيد بحالة حياتية موجودة نثمن فيها دور المرأة وجهدها الملموس.!

مشورة المرأة

لي صديق لا يقطع خطوة في الحياة إلا بمشورة زوجته، في كل شيء وكل تصرف وكل موقف، فهي مديرة أعماله وصاحب مشورته، وصانعة الرأي الذي يسير عليه.. في كل مأزق يأخذ رأيها ويعمل بتدبيرها، حتى في علاقاته مع زملائه الرجال، هي التي تدير تعاملاته معهم، ورغم احترامي للمرأة كثيرًا وتقديري لها، إلا أنه يبدو أنها لا تدرك كثيرًا من عالم الرجال وطبائعهم وسماتهم بل وذكائهم، فكثيرًا ما يظهر صاحبنا متخبطا في مواقفه مذبذبا في قراراته، حتى أنه أحيانًا ينكر ما كان أقره، ويقر ما كان أنكره، ويظهر كثيرًا في صورة غير لائقة بالرجال، تعتمد كثيرًا على الإخلال بالوعد وعدم الوفاء بالقصد، الجميع يعرف ذلك عنه، ويلومونه فيه، لكنني الوحيد الذي يعرف أنه بريء من التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب، فالسبب الحقيقي في ما هو فيه، تلك الزوجة التي ما زلت أصر كثيرًا أنها لا تفقه كثيرًا من دنيا الرجال وعقول الرجال وطبيعة الرجال وذكاء الرجال.!

ولا أعرف كيف لصديقي هذا ألا يرتعد جسده وهو يعرف المثل الشعبي الذي يقول:

"شورة المرة بخراب سنة ان صحت وان خابت بخراب العمر كله"

والحق أنني أرفض مجددًا إهانة المرأة، ولا نعمم أبدا هذا الحكم على جميع النساء، لكنني أرى وأجزم أن القليل من النساء من يرتقين لهذه المهمة وهذه الموهبة، فتكون المستشار الحكيم والمفتي البصير.! قليل.. قليل. قليل.

ومن خلال هذا القليل نضع تحته وفي ظلاله، كثيرا من الأمثلة، وما أروعها أم المؤمنين أم سلمة ففي العام السادس من الهجرة صحبت أم سلمة رسول الله ﷺ في رحلته إلى مكة معتمراً، تلك الرحلة التي رفضت قريش حينها أن يقترب رسول الله وصحبه من بيت الله الحرام، وعقدت معهم صلح الحُديبية الشهير.

ولما فرغ رسول الله من قضية الحُديبية، قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» فما قام رجل منهم، وكانوا لا يرجون الانصراف دون أن يعتمروا، بل كان بعضهم يريد الحرب ولم يأذن الله بها، ولما كرر رسول الله ﷺ عبارته إلى المسلمين ثلاثًا ولم يقم أحد منهم، غضب رسول الله واحمر وجهه، ودخل على أم سلمة بهذه الحال فعرفته، ولما سألته عن سبب غضبه، قال: هلك القوم لا يريدوا أن يطيعوا أمر الله ورسوله.

فما كان من الزوجة الرشيدة صائبة الرأي، إلا أن هدأت رسول الله وخففت الأمر عليه، وقالت له يارسول الله: «اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فإن فعلت ذلك فعلوا مثلك، وقد كان ففعل المسلمون مثلما فعل رسولهم وعادوا إلى صوابهم".

وقد حفظ التاريخ مواقف عديدة في حياة أم المؤمنين أم سلمة، التي كانت آخر من توفي من نساء النبي ﷺ وذلك في عام 58 للهجرة بعد سماعها ما حصل لسيد الشهداء الحسين عليه السلام وأهل بيته في كربلاء، حيث اعتزلت الناس وماتت في بيتها في المدينة. وقد كانت بحق أمًا للمؤمنين طيلة عمرها المديد، تقوم بواجب النصح لهم صغارا كانوا أم كبارا، ومن أمثلة ذلك موقفها في نصيحة الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه حين قالت له: "ما لي أرى رعيَّتك عنك نافرين، ومن جناحك ناقرين، لا تُعَفِّ (لا تخفي) طريقًا كان رسول الله لَجَبَهَا ولا تقتدح بزند كان أكباه، وتوخَّ حيث توخَّى صاحباك أبو بكر وعمر فإنهما ثَكَمَا الأمر ثَكْمًا ولم يظلمَا، هذا حقُّ أمومتي أَقْضِيه إليك، وإن عليك حقَّ الطاعة. فقال لها عثمان: أمَّا بعد، فقد قلتِ فوعيتُ، وأوصيتِ فقبلتُ"

ومن النوادر والطرائف في هذا الشأن ما ورد في سيرة ابن هشام من أن عامر بن (ظرب) بن عدوان العدواني، وكانت العرب تسند إليه الأمور المهمة في القضاء، ثم يرضوا بما قضى لهم فيه. فاختصموا يومًا في رجل خنثى، له ما للرجل وله ما للمرأة، فقالوا أنجعله رجلا أم امرأة؟ ولم يأتوه من قبل بأمر كان أعضل ولا أصعب منه فقال: امكثوا حتى انظر في أمركم، فوالله ما نزل بي مثل هذا، فبات ليال طويلة ساهرًا يقلب الأمور وينظر في شأن ما عرض عليه، وكانت له جاريه تسمى سخيلة ترعى عليه غنمه وإبله، وكان يعاتبها إذا سرحت متأخرة، يقول لها: صبّحت يا سخيلة وإذا أراحت ورجعت يقول لها: مسيّت يا سخيله.

فلما رأت سهره وقلة نومه وطول مكث الرجال عنده، وهو ينحر لهم في كل يوم جزورًا قالت له: مالك تكاد تهلك نفسك بالسهر ومالك بالنحر؟ ف

قال لها: ويحك دعيني، أمر ليس من شأنك، ثم عادت إليه بمثل قولها، فقال في نفسه: عسى أن تأتي لما أنا فيه بخير وفرج، فقال لها: ويحك اختصم لدي هؤلاء الرجال في ميراث (خنثى)، أأجعله رجلا أو امرأة، فوالله ما أدري ما أصنع وما يتوجه لي فيه وجه، فأنا كما ترين من السهر والحيرة؟

فقالت له من فورها: سبحان الله: اتبع المال المبال، اقعده فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل، وان بال من حيث تبول الأنثى فهي انثى.

فقال لها: مسي سخيل أو صبحي، فرجتها والله، ثم خرج على الناس فقضى بالذي أشارت عليه به سخيلة الجارية.

ولـــو أن النســـاء كمـــن فقدنـــا ... لفضلت النســـاء على الرجـال
فـــلا التأنيث لاسم الشمس عيـــب ... ولا التذكيـــر فخـــر للهـــلال

ولا يخفى على القارئ أنني رجل ممن تربى على كتب الشيخ الغزالي رحمه الله واعتمدت ثقافته على كثير من مفاهيم الشيخ الذي كان يعطي للمرأة قدرها ومكانتها، ويؤكد على ما أكدته السنة والقرآن الكريم من ذلك، وكان يذكر ما فعلته جولدا مائير حينما ركعت العرب بتشديد العين، وأنديرا غاندي، وعقلية بلقيس.!

وحتى لا نتهم بظلم المرأة، لابد أن نثبت ونقر بوجود صور أخرى لنساء عاقلات حكيمات أكثر بصرًا وتأملا من أزواجهن ألف مرة، ولكن حقد الزوج وحده، لا يقبل منها كلمة أو مشورة وربما عاندها وفي قولها الصواب، لا لشيء ولكن لمجرد أنه يشعر أنها أرقى منه تفكيرًا وفهمًا وحدسًا وتوقعًا، ومن ثم يغرق ثم يغرق ثم يغرق.!

لعن الله الحقد والغباء.

كما توجد صورة ثالثة لرجل يريد مشورة زوجته ويحب دومًا أن تهديه رأيه، وتشاركه اختياراته، لكنها صماء عن الرأي جاهلة في المشورة، فلا تلبث إلا أن تقول له: مش عارفه، اللي تختاره أنته، اللي تشوفه.!

وهنا يدرك الزوج أنه وحده في كثير من معارك الحياة، بلا سند أو مشير أو معين، فيتخذ قراراته وحده ويتحمل مصيرها وحده، لكنه مع هذا يفقد هذا الشعور حلو المذاق، مشورة الأنيس والشريك، وخاصة إذا كانت المشورة في أمر لا يخص غيرهما.

قد ورد في بعض كتب الأحاديث بعض المرويات، التي تشير إلى عدم جواز الأخذ برأي المرأة، وأنه يجب على الرجال مخالفتهن، ولكنها كلها أخبار واهية مردودة، يقول الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في " سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة "

" شاوروهن – يعنى النساء – وخالفوهن " لا أصل له مرفوعا

وقال أيضًا في نفس الكتاب: " طاعة المرأة ندامة " موضوع

وقال أيضًا: " هلكت الرجال حين أطاعت النساء" ضعيف

المرأة ومعترك السلطة!

يقول أناتول فرانس: "المرأة كالعقرب تشُق طريقها في الحياة بأن تلدغ من يقف في طريقه"

بعض النساء يكفرن أحيانًا بكل معالم الأنوثة من أجل مطامعهن وشهواتهن وأطماحهن، بل إنهن يبلغن الذرى سحيقًا في هذا الكفران؛ فتصل الواحدة منهن فيه إلى درجة التوحش، التي تتنكر فيها للابن والزوج والاخ والأب، تهدم وتُفني كل قريب منها إن حاول الاعتداء على مكتسباتها، والقضاء على ما حققته من نفوذ ومكانة وسلطان.

وأقول ابتداء للغاضبات: إن هذا الكلام لا يليق إلا بعالم الرجال، حيث نجده بكثرة ونبصرهم فيه وهم يتصارعون على الدنيا والمناصب، ويتفننون في الكيد والتآمر والغدر والمكائد، أما أن يكون مثله في حق المرأة، فهي كبيرة وعظيمة وعجيبة لا تليق، وتنافي الطبيعة والخلقة التي أخرج الله تعالى المرأة عليها من الرقة والحنان والحب والأنوثة والطيبة والرفق والعطاء، فكيف تُقدِم من كانت كذلك على قتل أبيها أو زوجها أو ولدها من أجل أطماع الدنيا وشهوة التسيد؟!

ومن هنا لم يكن قولي هذا عداءً أو بغضًا أو عنصرية، وإنما تعجب واستغراب من حالة منكرة ظهرت بها بعضهن في صفحات التاريخ.!

فامرأة كشجرة الدر[1] التي ألفت الحكم والسيادة ونفاذ الرأي والقرار، وانتقلت من جارية لا هم لها إلا أن يرضى عنها سيدها وكافلها، إلى حاكمة تأمر وتنهى، تقتل زوجها الملك المعز أيبك، حينما أقعدها في حجرة نومها، وحجب عنها بريق السلطان، الذي تمرغت فيه ثمانين يومًا حاكمة وملكة، وليت هذا فحسب، بل سارع بخطبة غيرها حينما ضاق بتصرفاتها وإصرارها على إبقاء نفوذها، فتحايلت عليه ودعته إليها ودبرت موته.

وامرأة كالخيزران، قتلت ولدها الهادي خليفة المسلمين العباسي، حينما منع عنها السلطان والسيادة والنفوذ الذي كانت تمارسه أيام أبيه المهدي، فما عاد الناس يقفون ببابها أو يلتمسون وساطتها، أو يطلبوا منها حاجتهم.. لم تطق الخيزران ذلك، وجن جنونها حينما فقدت هذا النفوذ، ودار العداء بينها وبين فلذة كبدها، حتى سلطت عليه بعض الجاريات قتلنه وهو مريض بكتم أنفاسه.

استمرت الخيزران تتدخل في أمور القصر والدولة، وتسلك في الاستبداد بالأمر والنهي مسالكها، وتلتقي كبار القادة في قصرها، وتتدخل في تعيين كبار الضباط والولاة والحكام، حتى مضى على ذلك أربعة أشهر من خلافته، فبدأ الناس يتوافدون عليها، وطمعوا فيها فكانت المواكب تزدحم إلى بابها.

ورغم أن الهادي حذر الخيزران كثيرًا، إلا أن المواكب التي اعتادت الوقوف بباب الخيزران استمرت في التوافد عليها، واستمر أصحاب الحاجات يطرقون بابها لتتوسط لهم بنفوذها، فلجأت الخيزران

[1] - ورد اسمها في بعض الكتب شجر الدر، وفي بعضها الآخر شجرة الدر

لابنها تكلمه في قضاء بعض الأمور، إلا أنه رفض، فقالت لهُ: «إنى ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك».

غضب الهادي وقال: «ويل له.. والله لا أقضيها له»، فقالت: «إذن والله لا أسألك حاجة أبدًا» فقال: «إذن والله لا أبالي، فقامت عنه غاضبة، ولكنه استوقفها وصرخ فيها «والله لئن بلغني أنه وقف أحد ببابك لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك؟ أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ ثم إياك وإياك إن فتحت بابك لمسلم أو ذمي» فانصرفت عنه وفي قلبها عليه نار هائلة وحقد مستعر، ومن هُنا بدأت الحرب.

شعر الهادي بأنه مهدد بطموحات والدته، فحاول قتلها، إذ يقول «الطبري» في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» إن الهادي حاول قتل والدته حين أرسل إليها أطعمة في طبق، لكن الخيزران طلبت أن يتذوق كلب من هذا الطبق أولًا، وقد سقط الكلب ميتًا على الفور، فأعلنت الخيزران الحرب على ولدها.

يقول الطبري عن ذلك: «فتركت ابنها وهي لا تكاد تتحسس مكان قدميها، فقد أعلنت الحرب بينهما، في الليلة ذاتها أمرت الخيزران جواريها الحسان، التسلل إلى مخدع ابنها الخليفة حيث ينام وخنقه تحت الوسائد، فقد وضعن هؤلاء الوسائد على رأس الحاكم وكأنهن يداعبنه وجلسن عليها حتى لفظ أنفاسه».

ورغم أن الخيزران اشتركت في المؤامرة، إلا أنها لم تتحمل منظر ابنها وأحب الناس لقلبها يموت، فصرخت وبكت وشقت ثوبها، وقالت: «لا عشت بعدك يا أمير المؤمنين»، ثم قامت وهمّت للوضوء وصلّت عليه.

ولعل في هذه المشاهد ما يدعونا لاستخلاص بعض الدروس، والتي كان أولها وأهمها: احذر أن تقترب من المرأة، فتحاول تجريدها من مكانتها أو سلطانها أو وظيفتها ونفوذها، ولتعلم وقتها أنك إن فعلت ذلك، أنك في مرمى الخطر، وأن خطرًا يُدبر لك من حيث لا تدري ولا تعلم.

أرأيتن كيف كانت أمه؟

مما أكرمني الله به تعالى في صدر شبابي أن كانت كتب العلامة أبو الحسن الندوي من الكتب التي نشأت عليها واستلهمت منها كثيرًا من مداركي الفكرية، ففي المرحلة الإعدادية كانت أول رسالة من رسائله التي وقعت عليها عيني ضمن الكتب التي كان يملكها أخي الأكبر، رسالة تحت عنوان (ردة ولا أبا بكر لها).

وكنت أظن الرجل باحثا إسلاميًا، أو عالما من علماء الأزهر، لكني عرفت فيما بعد أنه من علماء المسلمين في الهند، وله نشاط علمي ودعوي مبهر في دنيا الإسلام والدعوة إليه في العصر الحديث، بل له كتب لا يستغني عنها الباحث المسلم، وكل داعية ينشد الوعي لواقع دينه في الحقبة المعاصرة، وعلى رأسها كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، وكتبه كلها قد رزقه الله تعالى فيها القبول، فطبعت مثنى وثلاث ورباع، وأكثر من ذلك، وترجمت إلى لغات عدة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد كان هناك تقدير عظيم من علماء الأمة لهذا الرجل الصادق والعلامة النابه، فقد وصفه الشيخ علي الطنطاوي لما زاره سنة (1954م) في لكهنؤ فقال: "وجدته في الأحوال كلّها، مستقيمًا على الحق، عاملًا لله، زاهدًا حقيقّيًا، زهد العالم العارف بالدنيا وأهلها."

وقال عنه الشيخ الشرباصي في ترجمته له، وناهيك أن يترجم له الشرباصي وهو القامة الشامخة التي لا تترجم إلا للأعلام الكبار، فقد قال فيه: "له غرام أصيل باقتناء الكتب، فأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه، فهو لا يقتني الكتب للزينة بل ليهضمها قراءة وبحثًا ونقدًا، وله قدرة على الارتجال بالعربية يتدفق كالسيل، بلغة فيها الصور البيانية البليغة."

كما تمتع الرجل بمدح شيخنا محمد الغزالي في قوله: "هذا الإسلام لا يخدمه إلا نفس شاعرة محلقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ لها فيه.. لقد وجدنا في رسائل الشيخ الندوي لغة جديدة، وروحًا جديدة، والتفاتًا إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها"

ونفس الشيء في تقدير القرضاوي له حيث قال: "فهو إمام رباني إسلامي قرآني محمدي عالمي، الإسلام كان محور حياته ومرجعه في كل القضايا، والدافع الذي يدفعه إلى الحركة والعمل والسفر والكتابة والجهاد، ساعيًا لأن يقوي الجبهة الداخلية الإسلامية في مواجهة الغزوة الخارجية."

كما قرأت عنه "أن أخاه من تولّى تربيته بعد وفاة والده وهو في التاسعة من العمر، فحفظ القرآن في البيت وجوّده، تعاونه أمه.!"

وقد وقفت في هذا النص أمام كلمة (تعاونه أمه) فمن هي أمه حتى تعاون على تخريج مثل هذا الفتى النابغة؟ لابد أنها إن قُدّر لها أن تلعب دورًا في حياته، فإنها لا تعدوا أن تكون أمًا تقية عابدة خلوقة، تملك من ملكات التحميس والتحفيز والتشجيع، ما يدفع الولد لمراكز الصدارة والإمامة.

وقد ألفت رسالة أحسبها قيمة في هذا الموضوع، وكانت تحت عنوان (كوني أما عظيمة) وكانت كل الأمهات على هذا الطراز، يمتلكن العزيمة للتحميس والتشجيع، وتقرع الواحدة منهن في نفس فتاها طبول الهمة ليبلغ المجد والزعامة في دنياه.

لكن المفاجأة أن أم هذا النابعة الندوي، كانت لونًا آخر من النساء، لقد كانت أمةً وحدها في العلم والفقه والدراية والمعرفة، ولا يحسبن القارئ أنني أتحدث اليوم عن ثمرة هذه الأم، فما عرفته عنها كفيل أن نفردها بهذا الحديث، حتى يتمثلها النساء في حياتهن، ويحاكينها في طبيعتها الراقية التي ساهمت في صنع هذا الداعية العلامة الألمعي.

كانت أمه هي السيدة (خير النساء بنت ضياء النبي الحسني) قرأت على أبيها القرآن الكريم، وترجمة معانيه باللغة الأردية، وكانت لها كتب لازمتها طيلة حياتها كقصص الأنبياء، ومقاصد الصالحين ومآثر الصالحين، وطريق النجاة، والداء والدواء، وتعبير الرؤيا، وكانت مواظبة على قيام الليل وصلاة التراويح بالنساء، زاهدة صابرة منيبة تقية صالحة، نُشرت لها عدة كتب إسلامية ومجموعتان شعريتان، وكتب في تعليم النساء والأولاد في الأمور الاجتماعية ، ككتاب الذائقة، وكتاب حسن المعاشرة، وكتاب الدعاء والقدر، يقول عنها ولدها الندوي: "لما بدأت أشدو وأكتب نصحتني والدتي وأوصتني أن أبدأ كل ما أكتب بـ(بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم آتني بفضلك ما تؤتي عبادك الصالحين، وقد بقي ذلك عادتي وديدني مدة من الزمن، ولا أزال أذكر في مناسبات كثيرة هذه الكلمات الصالحات"

وربما تعتليك دهشة حينما تعلم أن هذه الأم لم تخرج هذا النابغة وحده، فعلى مستوى النساء كانت لها بنتين كانتا من العالمات والكاتبات المؤلفات، فهذه أخته الكبرى السيدة أمة العزيز لها كتاب في السيرة ورسائل عن بعض أمهات المؤمنين، وأخته الثانية أمة الله تسنيم ولها كتب معلومة ومعروفة مثل موج تسنيم، وزاد سفر وهو شرحها لرياض الصالحين، وقد قررت تدريسه المدارس الإسلامية في الهند، كما كانت شاعرة مجيدة مثل أمها، وكانت رئيسة لتحرير مجلة رضوان، وهي مجلة السيدات المسلمات بالأردية في الهند.

وانظر إليها حينما بدأ ولدها أبو الحسن يتعلم اللغة الإنكليزية، وبعث به الشوق أن يتقدم فيها، وتلقى دروسها والانقطاع إليها، وحرضه بعض أقاربه على أخذها لأنها لغة العصر التي تجلب الفرص المادية، والوظائف الحكومية، فبلغ ذلك أمه الصالحة العالمة الشاعرة الفقيهة، فكتبت إليه تنصحه في رفق، وتشرح له فضائل العربية ومنافع العلوم الدينية، والتوسط بها إلى الدعوة إلى الله تعالى، وابتغاء مرضاته، والجمع بين الحسنيين الدنيا والآخرة، وكان مما كتبت إليه:

"يا علي لا يغرنك كلام أحد، إن ابتغيت مرضاة الله تعالى، وأحببت أداء حقوقي؛ فانظر إلى أولئك الرجال الذين قضوا حياتهم في طلب العلم، ما أرفع شأنهم وأعلى مكانتهم، انظر إلى ولي الله المحدث الدهلوي، وعبد العزيز الدهلوي، وعبد القادر الدهلوي.. ياعلي! لو كان لي مائة ولد، لوقفتهم جميعا لعلم الدين"

وابتهلت إلى الله وتضرعت إليه، أن يصرف ولدها إلى ما يحبه ويرضاه، فأجاب الله تعالى دعوتها واشمئز قلبه، ونفرت نفسه من اللغة الانجليزية أثناء تأليف كتبه.

وهكذا كانت الأم العالمة التقية الفقيهة المربية الكاتبة الباحثة، التي استطاعت أن تربي وتنجب أعظم الباحثين المسلمين، وأكبر داعية عرفته الهند، والذي مازال إلى اليوم تاجًا على الرؤوس، يتباهى به مسلمو الهند في كل العالم.

احذري لعنة الثقافة

المرأة التي تتزوج من موهوب، لابد أن تنظر لنفسها على أنها ليست كأي زوجة، وأن عليها عبئًا كبيرًا ومسؤولية ضخمة في الحياة، وأنها تختلف عن أي امرأة أخرى أصبح لها بيت وزوج وأبناء.. إنها لا شك صاحبة رسالة، وقد عُقد عليها مالم يعقد على غيرها من صور المهمات الصعبة، والأدوار الخطيرة، التي يجب أن تقوم بها أحسن قيام، ويوم أن تفرط المرأة في هذه الرسالة، وتعترض طريق زوجها الموهوب المفكر، وتأبى أن تقف بجواره، وتشجعه وتحفزه ليستكمل طريقه، وينال منه غايته المنشودة، فإنها بهذا لا تهدمه فقط، وإنما تهدم لبنة من لبنات الثقافة والإبداع.!

إن هذه الزوجة، ستدخل معترك الثقافة كخادمة، وسيكون لها دور كبير في إثرائها، وسوف يذكرها التاريخ ويخلد دورها إن قامت به أحسن قيام، وحينما تُعادي طريق مبدعها، فإن الثقافة ستتخذها خصمًا لها، ولن ترحمها أو تذكرها بخير على مدار الحياة.. تمامًا كما فعلت مع (زانثيبي) زوجة سقراط، التي قيل عنها أنها كانت سليطة اللسان، تعانده وتجادله كثيرًا أمام الناس وتلاميذه، وتلومه على وضعهم المادي السيء، وكان سقراط لا يأبه لتصرفاتها وغضبها، ولم تكن تفكر إلا في عيشها هي وأطفالها، وتجهل القيمة الفكرية، والقدرات الأدبية، التي يتمتع بها زوجها سقراط.. ويبدو أنها أجهدت نفسها كثيرًا في عناد الرجل، ومحاولة تغيير مسار حياته، حتى أصيبت بألم في القلب، وتعرضت لجلطة قلبية حادة، أدت إلى موتها وسقوطها.

ولله در القائل: (ما أتعس الرجل الذي يسمع تصفيق الملايين خارج بيته، ويسمع تأنيب زوجته في غرفة نومه)

ويقول تشرشل: "عندما تقف زوجتي بجانبي أشعر أن الدنيا كلها معي، حتى ولو تخلى العالم كله عني"

ولعلي لا أخفيكِ يا زوجة المُلهم، أنك بهذا الزواج، يجب أن تغفلي كثيرًا من طموحك وأحلامك وجمالك ومستقبلك، لأن الرسالة العظيمة التي وضعك فيها القدر، أبلغ وأرقى من أي طموح تنذرينه لنفسك، وأي حلم تتأملينه لذاتك.

إن تاريخ الثقافة والأدب لن ينسى أبدًا (عطية الله إبراهيم) زوج نجيب محفوظ، تلك المرأة التي أدركت بقوة موهبة زوجها ونبوغه، فعملت على خدمة هذه الموهبة، وتوفير الأجواء التي تنمو فيها وتتجذر، حتى أتت أكلها وأثمرت بقوة، كانت تثق فيه كثيرًا، وتدرك أنه سينال ما ناله في يوم من الأيام، أما هو فقال عنها: إنه إذا كان لأحد فضل عليّ بعد الله تعالى فيما وصلت إليه، فهي زوجتي التي كانت بالفعل عطية الله إلي.. لقد فهمت طبيعة حياتي وتقبلتها، وحرصت على توفير الأجواء التي تمكنني من الكتابة، وحاولت بكل طاقتها أن تبعدني عن كل ما يعطلني أو يشغل فكري.. فكانت حقاً كما قيل وراء كل عظيم امرأة.

أما أنت أيتها الجميلة، التي تطمحين من وراء الزواج أن تمرحي وتلهي وتجوبي العالم، وتريدي من زوجك أن يسخر حياته لمرحك وزينتك وملابسك وجمالك ودلالك ورشاقتك ونضارتك وكوافيرك، فنصيحتي إليك أن تحذري كل الحذر، أن تقتربي من زوج موهوب أو أديب أو مفكر، لديه مشروع فكري يسيطر على عقله وهواه، لأنك لن تكوني سعيدة، ولن تنالي ما تطمحي إليه.. ومعنى أن تقبلي بمثله، فليكن في اعتقادك أن هناك ضرة أو ضرات كثيرات يشاركنك في الحياة معه، فمكتبته ضرتك الأولى، وقلمه وأوراقه ضرتك الثانية، وكتبه التي ينتجها أعز عليه من أبنائك منه.

زوجة سيبويه، وزوجة ستيفن كينج

كثير من أفكار وعلم سيبويه ضاع، ولم يصلنا منه إلا القليل، بسبب أن زوجته التي كانت تعشقه، رأته طيلة الوقت منشغلا بالعلم والتدوين، فانتظرت ذات يوم حتى خرج، وجمعت كل أوراقه وأحرقتها؛ فلما عاد ووجد عصارة فكره بين الرماد أغشى عليه، ولما أفاق طلقها.

الكاتب الأمريكي الشهير ستيفن كينج، أحد أبرز مؤسسي أدب الرعب في العالم حتى لقب بـ (بملك الرعب)، فشل في التعاقد مع دار طباعة لنشر كتابه الأول، فقرر أن يرميه في القمامة!

غير أن زوجته التي كانت تختلف عن زوجه سيبويه، استخرجت الورق وجمعته وأعادت ترتيبه، وذهبت به إلى دار نشر وافقت على طبع الكتاب ومن ثم توالت الأعمال.

واليوم تحقق كتب ستيفن كينج أعلى نسبة مبيعات في العالم، حيث طبعت كتبه 350 مليون نسخة، بخلاف أعماله التي تحولت إلى أشهر أفلام الرعب!

لقد وجد سلامة موسى عقب زواجه، صعوبة كبيرة أولاهما، أنه محترف للأدب والصحافة ومتعلق بالقراءة ويهوى الثقافة، بينما زوجته ترى الإنفاق على الكتب إسرافًا وتبديدًا، ولا تطيق رؤية زوجها غارقا في كتابه طوال الوقت.!

لكنه يقول: وجدت أنه للتغلب على هذه العلة، وهي أن أشركها فيما أكتب وأناقشها في جميع الموضوعات الثقافية التي أهتم بها، واضطرت هي لمتابعة نشاطي، لأن كل زوجة مهتمة بمهنة زوجها حتى ارتفع مستواها كثيرًا عما سبق.

ربما نجح (سلامة موسى) في محاولاته مع زوجه التي كانت لا تهوى الكتب، ولا تميل إلى القراءة، حتى استطاع أن يجعل منها قارئة مثقفة تناقشه ويناقشها، فيما يعن له من شؤون المعرفة، لكن كان هناك غيرهُ من المثقفين والكتاب الكبار، من كان لا يعبأ بالزوجة في ثقافتها أو فهمها ووعيها، ويكفيه منها أن تقوم بخدمة البيت وشؤونه والأولاد وتربيتهم.

ولعل هذا كان الحال الأغلب لكثير من أدبائنا الكبار، إن لم يكن جلهم.!

وإذا كنا نعرض لضيق الرجل من حال الزوجة في انصرافها عما يهوى، فهناك زوجات ضقن ذرعًا من الكتب ورفوفها، ورأين فيها ضرة عنيدة تنغص عليهن عيشهن، وتسرق الزوج من بين أحضانهن، وربما تقضي حياتها في غضب ونكد وشقاق، إلى أن يغلبها القدر فتستسلم له، وهذا تمامًا ما حدث لزوج المفكر الكبير الأستاذ (أحمد أمين) صاحب ضُحى الإسلام وزعماء الإصلاح، حيث اقترنا في بداية زواجهما، يتعرف كلاهما على أخلاق صاحبه، ويتكشف أحدهما طباع الآخر، ورغم أن ثقافة هذه الزوجة كانت محدودة، إلا أن (أمين) كان مسرفًا في هيامه بكتبه وقلمه، التي يقضي معها أغلب الوقت غافلا أن له قرينة تعيش معه، ولها كثير من الحقوق، وعلى رأسها هذا الوقت الذي يمنح أغلبه للبحث والتأليف.! حتى جاء يوم الصاعقة، ذلك اليوم الذي انفجرت فيه الزوجة، ولم تتحمل هذا الغلو الثقافي الفاحش، فخرجت عن مشاعرها غاضبة!

حينما أعدت العشاء، وفتحت الباب لتخبره بأنه قد تم إعداده، لكن صاحبنا لم يكن يدري بما حوله، ولم يسمع النداء أو يفطن لفتح الباب، لأنه كان غارقًا في ترجمة وصياغة بعض الجمل الفلسفية، فلم تُطق الزوجة صبرًا، فكان خصامها ونزاعها وشكواها إلى أهلها، ولكن رغم هذه الحادثة التي غضبت

فيها غضبًا عارمًا، لم تستطع أن تغير من أخلاق زوجها وطباعه، حتى استسلمت في النهاية للأمر الواقع، ورضيت أن تعيش مع هذا الراهب عيشة شبه معزولة، تقوم برسالتها في خدمته وتربية أبنائه.!

ولا شك أن هذه الزوجة العظيمة، كانت نظرتها للكتب نظرة المُبغضات الكارهات، لكنها في نفس الوقت، نستطيع أن نقر ونقول: إنها ساهمت رغم هذا البغض في خدمة الثقافة والمكتبة العربية، فقد أنجب أحمد أمين عشرة من الأبناء، مات اثنان وبقي ثمانية، استطاعت هذه المرأة أن تقف بجواره في تربية هؤلاء الأبناء الكثر، حتى أنه ومن تابع حاله كان يتعجب: كيف استطاع أن يؤلف ما ألف، ويكتب ما كتب، ويقرأ ما قرأ، مع ما تتطلبه تربية الأبناء من مسؤولية شاقة، وجهود لا تنتهي.؟!

لكننا لا شك الآن، نعرف السبب الذي يُبطل به هذا العجب، والذي يتمثل في هذه الزوجة العظيمة الكريمة، التي حملت عنه الأعباء، وتركته معزولا في عالمه أغلب وقته، يُسامر كتبه وأوراقه، واكتفت بإشرافه على التربية العلمية والسلوكية لأولاده.

عرفت منقبة

عرفت منقبة.. لكنها أبدًا لم تكن متخلفة، ولم تكن رجعية، ولم تكن جاهلة أو متأخرة.. لقد كانت شيئًا جميلا راقيًا عفيفًا ساميًا.

كانت تؤمن بالتعليم ودوره في رقي الأمم وتطورها ونهوضها.

كانت تؤمن بالقراءة وأهميتها في إيجاد عقل واع مفكر وفهم ثاقب مستنير.

كانت تطالع الروايات وكتب الفكر الغربي، كما كانت تطالع كتب الدين والتراث العربي، لإدراكها أنها تجارب إنسانية لا يمكن إغفالها أو التنكر لها.

كانت تؤمن بالحشمة والحجاب والأدب ودورهم في حفظ الفطرة الإنسانية وتعزيز الأخلاق الحميدة.

كانت ترى أن الفن وسيلة من وسائل الرقي وتنوير العقل، والرياضة وسيلة لتنقية الجسم ونقاء الدم.

كانت تحب الحوار المبني على التفاهم واللين والرفق في طرح القضايا والآراء.

كانت تحب الوطن وتعنى بهويته وآثاره وحضاراته، وتؤمن أن التاريخ أول طريق للإيمان بالمستقبل.

كانت تخرج في الرحلات وتحب الترفيه والسياحة والترويح عن النفس.

كانت تحب الجمال والتزين في غير وقته، وتهوى المودة في غير تكلف أو إفراط.

كانت تحب العمل وتجتهد فيه، وتؤمن أن النشاط والعزيمة سبيل الإنجاز الذي ينعكس أثره على المجتمع والحياة.

كانت تتحدث في السياسة وفي ذات الوقت تتحدث عن المطبخ وفنون إعداد الطعام، وترى أن وظيفتها كربة بيت، لا يهدم وظيفتها وطبيعتها كمواطنة واعية بقضايا بلادها.

كانت ترى أن للمرأة دور في المجتمع، وأنها في زمن لا ينفع أبدًا أن تكون المرأة حبيسة البيت.

كانت تبذل الخير لمن حولها، وتحب التطوع في أعمال البر، ولا تدخر وسعًا في نفع من حولها.

كانت تؤمن أن حفظ الدين وتعاليمه والتمسك بقيمه، أساس مهم في كمال العلاقة بين العبد وربه.

كانت تتحدث في الثقافة العامة والتاريخ والاجتماع وطبائع الشعوب وعادات الأمم وقضاياها، كما تتحدث في الأخلاق وقيم الدين.

كانت تشارك في المنتديات والندوات واللقاءات التي تفيد الحياة، والمعرفة والسلوك، وتعالج مشكلات الإنسان.

وكانت غير ذلك كثير وكثير مما يعكس صورة المرأة الحضارية المثالية، التي نراها تليق بالعصر والوطن والزمان والمكان، والتي كانت تؤمن أن الحجاب ليس حجابا على العقل وإنما مجرد غطاء للرأس.

وبعد هذا كله أخبروني بالله عليكم ماذا نريد من المرأة أكثر من هذا؟

بل بالله عليكم هل يليق بنا أن نتهم امرأة هذه صفاتها بأنها رجعية أو متخلفة، أو أنها لا تليق لمنصب حضاري في بلادنا لمجرد أنها منتقبة؟! وأنها تعوق عملية الثقافة والتطور؟!

نعم للأسف هذا ما فعلته الوزيرة (إيناس عبد الدايم) مع الفنانة التشكيلية السيدة (منى القماح) التي تم اختيارها مديرًا لثقافة كفر الدوار، إثر مسابقة فازت بها عن جدارة، فألغت الوزيرة القرار بدعوى أنها منتقبة، ولا تليق بهذا المنصب الحضاري.. تحدث هذه المهزلة في دولة مسلمة ينص دستورها رسميا على أن الإسلام دين للدولة، لكن الوزيرة فزعت حينما كتب شيوعي من حزب التجمع في محافظة البحيرة على صفحته يندد بهذا الأمر، ويطالب بإلغاء القرار، فسارعت ملبية لاتخاذ هذا الاجراء الساقط المشين، الذي لا يليق بمصر المسلمة.!

أدرك بعنف أن هذه السيدة الفنانة، لو كانت عارية سافرة، يظهر منها فخذيها وصدريها، لكانت تليق ونص وعشر تربع، بالمنصب الحضاري العظيم، أما أن تكون محتشمة محترمة ومحجبة، فهذا قمة التخلف والتراجع الحضاري الإنساني، وهكذا يتصور الواهمون.

يسؤني كثيرًا أن تكون وزيرة ثقافة مصر بهذا الفهم، وهذا الفكر الذي يهدم الحق ويكبت العقل، ويقف حاجبًا حاجزًا في وجه الحرية الشخصية.

ما أعظم القرآن الكريم حينما يتجدد بآياته مع الزمان، ليبهرنا بإعجازه الذي لا ينقطع وها هو يتحقق في قوله تعالى: (أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون)

انتشرت مؤخرًا صورة لامرأة منتقبة، وهي تساعد عجوزًا في الـ 84 من عمرها، بعد تعرضها لحادث أثناء تواجدها على متن حافلة في أحد شوارع العاصمة البريطانية "لندن"، بشكل واسع على شبكات التواصل الاجتماعي، كما تداولتها عدة مواقع إخبارية بريطانية.

وظهرت السيدة المنتقبة في الصورة، وهي تجلس بجانب العجوز وتمسك بيدها، بعد أن سقطت الأخيرة وعلق رأسها بين باب الحافلة وبين عمود معدني؛ والجدير بالذكر أن المرأة المنتقبة، ظلت بجانب العجوز لمدة 20 دقيقة، حتى وصلت سيارة الإسعاف، حسبما أفادت تقارير إخبارية.

وقام أحد مستخدمي موقع "فيس بوك" بنشر هذه الصورة على صفحته الشخصية، وعلق عليها قائلاً: "هذا هو الإسلام الحقيقي".

وهكذا رأى بعضهم الصورة الإيجابية الجميلة، التي تعكس رحمة وجمال الإسلام، وتغالب على ما يشيع في مجتمعه من ظلم المنقبات، واعترف بأن هذه الصورة الرحيمة تعكس طباع الإسلام وسماحته.!

في حوار لها على صحيفة عقيدتي، تحدثت إحدى الأديبات الناشرات المنتقبات، حينما وجه لها المحاور سؤاله: بحكم أن منتقبة هل شكل لك النقاب صعوبة معينة؟

فأجابت بقولها: بالطبع واجهت صعوبات كثيرة بسبب النقاب، وكان السؤال الأهم: كيف تتكلمين في الثقافة، وأنت منقبة؟

وكان ردي عليهم: إن النقاب غطاء للوجه وليس غطاءً للعقل، وقمت بفضل ثقة الناس ودعمي للوسط الأدبي والثقافي، ونجحت خلال سنة واحدة في إخراج 80 إصدارًا، والشباب يعتبرون داري بيتهم، حتى أنهم أطلقوا علي اسم أم الأدباء.!

وفي حوار مشابه مع الإعلامية القطرية الطموحة نورا الكعبي:

*هل النقاب كان حاجزاً أمام عملك؟

- النقاب لم يكن ولن يكون عائقًا بالنسبة لي، بل بات ميزة، وبات المجتمع القطري يميِّز "نورة الكعبي" عن أي من الإعلاميات الأخريات.

* لماذا اتخذت قرار الإبقاء على النقاب بالرغم من أنك إعلامية وأحد مشاهير "السوشيال ميديا"؟

-قرار الظهور الإعلامي بالنقاب كان تحدياً، وكان رسالة للتأكيد على أنَّنا نحن من نخلق العوائق والعراقيل أمام طموحاتنا، وليس النقاب، والوصول إلى الأهداف يحتاج إلى قوة إرادة، وتحدٍ، وإيمان كامل بما نود تحقيقه، ونستطيع أن نصل إلى ما نريد دون التنازل عن عاداتنا وتقاليدنا.

والأمر الذي جعلني أحافظ على النقاب هو اقتحامي لعالم الإعلام الاجتماعي، حيث بت من مشاهير الإعلام الاجتماعي، وبت معروفة في المجتمع القطري بنقابي، وأظن أن المرأة في عملها وليس بشكلها الخارجي.

* كيف استطعتِ أن تصلي إلى 17 ألف متابع؟

_أظن النقاب هو ما ميزني، وأكسبني شهرة، لأنني رغبت في أنني أن أوصل رسالة، بأنَّ النقاب ليس حاجزًا، وليس عائقًا أمام عمل المرأة، وليس من المفروض أن تتوارى المرأة المنقبة، بل عليها أن تتمسك وتظهر بهذا اللباس، لتغيير الصورة النمطية عن المرأة المنتقبة.

الغيرة المجنونة

كان من أروع ما قرأت عن الغيرة ما حكاه الأستاذ (عمر التلمساني) عن زوجته ومدى حبه لها وغيرته عليها، فيقول رحمه الله: "لم تُرق امرأة في نظري بعد هذا الزواج ولم أفكر في غيرها واقتصرت عليها ودام هذا الزواج الهنيء ثلاثة وخمسين عاماً حتى توفيت تلك الزوجة الوفية في شهر رمضان 1399هـ

ـ الثامن من أغسطس 1979م بعد أن تسحرنا وصلينا الفجر معاً وبعد مرض لازمها الفراش حوالي سبع سنوات.. ومازلت أبكيها بحرقة من كل قلبي إلى اليوم، كلما مرت ذكراها بخاطري أو ذكرها أحد أمامي، فقد كانت زوجة مثالية، تطهو أشهى الطعام وتساعد من تغسل الملابس يداً بيد، وتقوم على نظافة المنزل مع الخادمة، لم تسألني فيما أفعل لِمَ فعلت؟ ولا فيما تركت لِمَ تركت؟ لم تطالبني بشيء لنفسها، لأني كنت أوفر لها كل ما تطلبه الزوجة من زوجها وظلت بعد الزواج ملازمة للبيت حوالي سبعة عشر عاماً، لا تخرج لزيارة أهلها أو حضور عزاء أو تهنئة إلا في سيارة، ولم تركب طوال تلك السنين تراماً ولا أتوبيسا أو تمشي في الطريق على قدميها، لأني كنت شديد الغيرة عليها، أغار عليها من الشمس أن تلقي عليها أشعتها، ومن الهواء أن يلامس طرف ملابسها، وكانت تعرف ذلك مني، فلم تضق بي ولم تعاتبني.."

".. ولما قضيت في سجن عبد الناصر سبعة عشر عاماً (من أكتوبر 1954م ـ إلى يوليو 1971) كانت نعم الزوجة الصابرة المحتسبة، ومرت عشر سنوات في السجن لم أرها فيها، غيرة عليها أن يراها السجانون ومن معي من الإخوان حتى إذا ألح علّي الإخوان، ووجهوا لي اللوم على هذه القطيعة، أذنت لها بزيارتي في السجن، واستقبلتها في اتزان، وكأني لم أفارقها إلا يوماً أو بعض يوم!."[1]

ويذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في حوادث سنة ست وثمانين ومائتين:

"قال في المنتظم: ومن عجائب ما وقع من الحوادث في هذه السنة: أن امرأة تقدمت إلى قاضي الري – مدينة في إيران اليوم–، فادَّعت على زوجها بصداقها خمسمائة دينار، فأنكره، فجاءت ببينة تشهد لها به، فقالوا: نريد أن تُسفر لنا عن وجهها حتى نعلم أنها الزوجة أم لا؟

فلما صمَّموا على ذلك قال الزوج:

"لا تفعلوا، هي صادقة فيما تدَّعيه". فأقر بما ادَّعتْ ليصون زوجته عن النظر إلى وجهها، فقالت المرأة حين عرفت ذلك منه، وأنه إنما أقر ليصون وجهها عن النظر: هو في حِلٍّ من صداقي عليه في الدنيا والآخرة"اهـ.

وزاد الحافظ السمعاني في (الأنساب):

[1] ـ من كتاب (سطور من حياة الداعية الرباني عمر التلمساني) للكاتب الكبير بدر محمد بدر

"فقال القاضي وقد أعجب بغيرتها، يُكْتَبُ هذا في مكارم الأخلاق"[2]

هناك من يضيقون على المرأة إلى حد الكبت والقهر بحجة الغيرة عليها، فلا يجب أن يراها إلا لزيمة البيت، لا تخرج من بابه إلا للقبر.. فليس من حقها أن تتعلم، أو ترى الدنيا، أو تثبت ذاتها وتساهم في مسيرة الحياة وبناء النهضة والحضارة.

إن هذا الجُرم في تغييب المرأة ووأدها، خلّف أجيلاً من الحمقى والجهلاء، لا ترقى بهم أمة، أو تقوم على أيديهم نهضة، بل كان الحُمق في ازدرائها سبيلاً ومكنةً لأعداء الإسلام.

وقد نبه الإمام (ابن رشد) إلى أن تردي المجتمع الإسلامي وتخلفه، يعود في أهم أسبابه إلى تردي أوضاع المرأة فيه.. وهو الذي جاهر في تعليقه على كتاب السياسة لأفلاطون: بأن النساء والرجال نوع واحد، وأن لا فرقَ بين الرجل والمرأة في الغاية الإنسانية. والفرق الوحيد الذي يراه هو في احتمال الكدّ الجسدي الذي يَقدر الرجل عليه أكثر من المرأة.

يصف المفكر الفرنسي (رولان بارت) المرأة بأنها المعمل الثقافي ويقول:

"أنا لا أتصور حضارة بدون المرأة، وعندما تكون المرأة (تحت الصفر)، فلا مجال مطلقاً للحديث عن (شعب)، وإنما يجب الانتباه إلى مأساة كبرى يواجهها (قطيع بشري)."

ولم يكن فلاسفة الغرب وحدهم من أدركوا هذا السر في نهضة الشعوب.. فإن فلاسفتنا الكبار، كانوا على نفس المستوى من فهم قيمة المرأة التي جعلها العدو سلاحاً ضد أمتنا

يقول شيخنا الغزالي رحمه الله:

" إن مستقبل الإسلام رهن بإعادة النظر في قضايا عديدة، منها قضية المرأة، فالتضييق عليها كان مدخلاً لأعداء الدين لكي ينفذوا إلى المجتمع المسلم"

ومن هنا.. فإن كبت المرأة وقهر نبوغها بحجة الغيرة عليها، ما هو إلا معول هدم للأمة ومسارها نحو الرقي.. فالمرأة لابد أن تكون المشاعر تجاهها متوازنة متقاربة رزينة، بعيدة عن الغلو والشطط.. وإلا كانت العاقبة سيئة، لا عليك وحدك، وإنما على وطنك وأمتك، ومستقبل الأجيال.

---

[2] البداية والنهاية لابن كثير. (81/11)

أما التي تزعم أنها لا تغار.! فلا تصدق إن سمعت امرأة في يوم من الأيام تدعي أنها لا تغار.. فربما لم يحدث في حياتها من المواقف ما يستحضر ثورة هذا البركان الخامد في نفسها.. ولو حدث لرأت من نفسها ما تنكره اليوم..

إن الغيرة فطرة محتمة في النساء كتبها الله على جنسهن..

وقد قال النبي ﷺ: "إن الله تعالى كتب الغيرة على النساء"[1]

حتى أنضر وأنقى من عرفت البشرية كن يغرن فهذه عائشة أم المؤمنين تحكي تجربتها مع الغيرة التي لم تفارقها يوماً فتقول:

"دخل عليّ رسول الله ﷺ فوضع عنه ثوبين ثم لم يستتم أن قام فلبسهما فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنه يأتي صويحباته فخرجت أتتبعه، فأدركته بالبقيع يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء، فقلت: بأبي وأمي، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا، فانصرفت فدخلت حجرتي وليّ نفس عال ولحقني رسول الله ﷺ فقال: ما هذا النفس يا عائشة؟

قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتيتني فوضعت عنك ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما فأخذتني غيرة شديدة، ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع، فقال: يا عائشة أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله)[2]

وتحكي في موقف آخر: "كان رسول الله ﷺ مع أصحابه، فصنعت له طعاماً وصنعت له حفصة رضي الله عنها طعاماً فسبقتني حفصة فقلت للجارية: انطلقي فأكفئي قصعتها فأهوت أن تضعها بين يدي رسول الله ﷺ فكفأتها فانكفأت القصعة فانتشر الطعام فجمعها رسول الله ﷺ وما فيها من طعام على الأرض وهو يقول: غارت أمكم، غارت أمكم، فأكلوا ثم بعثت بقصعتي فدفعها النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة وقال: خذوا ظرفا مكان ظرفكم وكلوا ما فيه)[3]

هناك نسوة يبالغن في غيرتهن، فإذا حضر الزوج من عمله تحاصره بالأسئلة عن العاملات معه شكلهن لونهن وزنهن زيهن؟

---

[1] - رواه الطبراني في الكبير وحسنه في الجامع الصغير..
[2] - رواه البيهقي
[3] - رواه البخاري

وهل فلانة أجمل مني؟

وهل تحدثت معها؟

وهل.. وهل.. وهل؟

إلى أن يضيق صدره وتتلف أعصابه، فيؤدي ذلك إلى أن يقوم بالزواج من أخرى ثانية."[1]

المرأة والولاية؟

لا ينكر منكر أن المرأة نجحت في كثير من دروب الحياة وبجدارة، نجحت طبيبة ومعلمة ومهندسة وعالمة وإعلامية وفقيهة.

ولكن مازالت هناك عقول تستنكر ذلك، خاصة في مسألة الولاية والملك، وهو خلاف قديم بين مدرسة العقل ومدرية النص، فأهل النص يرون أنها لا تتولى الحكم في الإسلام، كالملك والرئاسة وقيادة الجيش، ويستشهد بعضهم بحيرة الهدهد واندهاشه واستنكاره، حينما رأى بلقيس تتربع على عرش اليمن في قوله: (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) وحجتهم أنه تعجب من أمر غريب لم يكن مشاعًا أو معروفًا في عهده وزمنه، كما ينوه بأن بلقيس سلمت دولتها هدية لسليمان وأسلمت طائعة لله تعالى.

كما يستشهدون بذلك بقوله ﷺ: (لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) وذلك لما يغلب عليها من الشفقة والرأفة والحنان والتردد والخوف ومرورها بظروف لا تؤهلها لاتخاذ قرارات مصيرية تخص الأمة وتتحكم في مستقبلها.

بل لما قادت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها جيش الجمل هزم جيشها وقتل الزبير وطلحة وندمت بعد ذلك على هذا الخروج، ولما دبرت زيبدة زوج هارون الرشيد أمر ابنها فشل وأخفق وضيع الخلافة وهزمه المأمون،

وقال بعضهم: لما تولت زنوبيا الزباء مملكة تدمر، سلمت دولتها وقتلت نفسها بالسم وقالت: بيدي لا بيد عمرو.

وأدارت أم عبد الله الصغير أخر ملوك الأندلس أمر ابنها، فضيع الملك وأخذت تسبه وتهجوه بقولها:

[1] - مقال لـ د/محمد مورو بتصرف.. موقع الجماعة الإسلامية

ابك مثل النساء ملكا مضاعا ** لم تحافظ عليه مثل الرجال

وكذلك شجرة الدر حينما تولت الأمور، كانت نهايتها القتل والضياع واضطراب البلاد.

ومن ضمن أسباب انتصار العرب على إسرائيل في حرب أكتوبر 73 أنها كانت تقودها امرأة هي جولدا مائير.

ثم سيق هذا المثل تهكما، بأن سؤالا وجه لأحد علماء المسلمين في الغرب: لماذا لا تتولى المرأة الحكم في الإسلام؟ فأجاب مازحًا: لأنه قد يطلب منها اتخاذ قرار الحرب وهي في غرفة الولادة.!

أما أهل العقل.. فكان لهم كلام آخر حين انطلقوا من نقاش ما نسب إلى النبي ﷺ: [ما أفلح قوم يلى أمرهم امرأة] ولقد وردت لهذا الحديث روايات متعددة، منها:

[لن يفلح قوم تملكهم امرأة] . .

[لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة] . .

[ولن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة] – رواها: البخاري والترمذي والنسائي والإمام أحمد

لقد نظر أهل العقل إلى الحديث وفرقوا فيه بين المعنى والرواية، فهو حديث صحيح لا شك في ذلك، لكن إدراك مناسبته التي قيل فيها يجعل " الدراية " بمعناه الحقيقي مخالفة للاستدلال به على تحريم ولاية المرأة للعمل العام.

فقد قدم نفر من بلاد فارس إلى المدينة المنورة، فسألهم رسول الله ﷺ:

من يلي أمر فارس؟ قال – [أحدهم]: امرأة

وهذا الشاهد قد جعل الحديث نبوءة سياسية بزوال ملك فارس، وهي النبوءة التي تحققت بعد ذلك بسنوات أكثر منه تشريعاً عاما يحرم ولاية المرأة للعمل السياسي العام.

وقد تحدث الدكتور محمد عمارة رحمه الله في هذا، وذكر أن هذه الملابسات تجعل معنى هذا الحديث خاصاً " بالولاية العامة " أي رئاسة الدولة وقيادة الأمة، فالمقام كان مقام الحديث عن امرأة تولت عرش الكسروية الفارسية، التي كانت تمثل إحدى القوتين العظيمتين في النظام العالمي لذلك التاريخ، ولا خلاف بين جمهور الفقهاء – باستثناء طائفة من الخوارج – على اشتراط " الذكورة " فيمن يلى " الإمامة العظمى " والخلافة العامة لدار الإسلام وأمة الإسلام، أما ماعدا هذا المنصب – بما في ذلك

ولايات الأقاليم والأقطار والدول القومية والقطرية والوطنية، فإنها لا تدخل في ولاية الإمامة العظمى لدار الإسلام وأمته، لأنها ولايات خاصة وجزئية ، يفرض واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المشاركة في حمل أماناتها على الرجال والنساء دون تفريق، فقال ﷺ: " ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ".

وأمر آخر لابد من الإشارة إليه، في إزالة هذه الشبهة عن ولاية المرأة للعمل العام، وهو تغير مفهوم الولاية العامة في عصرنا الحديث، وذلك بانتقاله من: " سلطان الفرد " إلى " سلطان المؤسسة " والتي يشترك فيها جمع من ذوي السلطان والاختصاص.

لقد تحوّل " القضاء " من قضاء القاضي الفرد إلى قضاء مؤسسي، يشترك في الحكم فيه عدد من القضاة، فإذا شاركت المرأة في " هيئة المحكمة " فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة للقضاء، بالمعنى الذى كان وارداً في فقه القدماء، لأن الولاية هنا – الآن – لمؤسسة وجمع، وليست لفرد من الأفراد، رجلاً كان أو امرأة، بل لقد أصبحت مؤسسة التشريع والتقنين مشاركة فى ولاية القضاء، بتشريعها القوانين التي ينفذها القضاة، فلم يعد قاضي اليوم ذلك الذى يجتهد في استنباط الحكم واستخلاص القانون، وإنما أصبح " المنفذ " للقانون الذي صاغته وقننته مؤسسة، تمثل الاجتهاد الجماعي والمؤسسي لا الفردي في صياغة القانون ."

وكان الشيخ الغزالي ممن يدافعون لا عن حق المرأة في الولاية فقط، بل عن عقليتها التي لا تقل عبقرية عن عقلية الرجل، حين قال:

"وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت في الهزيمة المخزية التي نزلت بنا وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية لدينها.

إن امرأة يهودية هي التي قادت قومها، وأذلت نفرا من الساسة العرب لهم لحي وشوارب في حرب الأيام الستة وفي حروب تالية.!

كانت بقليس ذات ملك عريض، وصفه الهدهد بقوله: «إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم»[1] وقد دعاها سليمان الى الإسلام، ونهاها عن الاستكبار والعناد، فلما تلقت

[1] - سبأ: 36

كتابه، تروت في الرد عليه، واستشارت رجال الدولة الذين سارعوا الى مساندتها في أي قرار تتخذه، قائلين «نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد. والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين»؟ ولم تغتر المرأة الواعية بقوتها ولا بطاعة قومها لها، بل قالت: نختبر سليمان هذا، لنتعرف أهو جبار من طلاب السطوة والثروة، أم هو نبي صاحب إيمان ودعوة؟ ولما التقت بسليمان، بقيت على ذكائها واستنارة حكمها تدرس أحواله، وما يريد وما يفعل، فاستبان لها أنه نبي صالح، وتذكرت الكتاب الذي أرسله إليها: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم* ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين» ثم قررت طرح وثنيتها الأولى والدخول في دين الله قائلة: "رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"

إن انجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة «فيكتوريا» وهي الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء، وتعد في قمة الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي، فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟"

وقد تحدثت في مكان آخر عن الضربات القاصمة التي أصابت المسلمين في القارة الهندية على يدي «انديرا غاندي» وكيف شطرت الكيان الإسلامي شطرين فحققت لقومها ما يصبون! على حين عاد المرشال، يحيى خان يجرر أذيال الخيبة!!

إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة! إنها قصة أخلاق ومواهب نفسية.

ولسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو رئيسات للحكومات! إننا نعشق شيئا واحدًا، أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان في الأمة.

وحديث الغزالي عن جولدا مائير وبلقيس هو نفس الاستشهاد السابق لأصحاب النص، ولكنهم قلبوه بشكل معكوس يناسب توجههم ورأيهم الحرفي النصوصي.

الحرب في عيون النساء

هناك مقال مهم نشرته صحيفة الحياة في عدد 24 / 10/ 2017م تحت عنوان (الحرب في عيون النساء من دون أبطال ولا إنجازات) للكاتبة الروسية (سفتلانا أليكسيفيتش)[1] تعرض فيه حالة النساء اللاتي

[1] - سفيتلانا اليكسييفيتش هي صحفية وكاتبة بيلاروسية ولدت في31 ماي 1948 في جمهورية أوكرانيا السوفيتية الاشتراكية في بلدة ستانسلاف غرب أوكرانيا، وفي كنف عائلة مدرسين في الريف. وتخرجت من كلية الصحافة في جامعة مينسك (1967-1972). عملت في جريدة محلية بمدينة بريست بالقرب من الحدود البولندية، وفي مراحل تالية من حياتها، عاشت متنقلة بين إيطاليا وفرنسا وألمانيا والسويد، حازت على جائزة السلام الألمانية لتجارة الكتب عام 2013م وحازت على جائزة نوبل للآداب سنة 2015م.

شاركن في الحرب، وعشن حياة العسكرية، وفي هذا العمل ما هو جدير بالتأمل والدراسة، تقول سفتلانا:

"وحملت أولى التسجيلات.. وكانت المفاجأة الأولى: شغلت هذه النسوة (اللواتي قابلتهن) وظائف عسكرية – وكنا ناقلات جرحى، وقنّاصات في فرق النخب، ومدفعيات (مطلقات المدافع)، وزعيمات وحدات الدفاع الجوي، وإطفائيات– في وقت أنهن اليوم محاسبات، ومساعدات في المختبر، ودليلات سياحية، ومعلمات.. ويكاد الفرق هذا بين أحوالهن اليوم وفيما مضى، يوحي بأن ما تسرّ الواحدة منهنّ إليّ، ليس من بنات ذكرياتها الخاصة، بل ذكريات فتيات أخريات، ذكريات مؤلمة حقا.

لا أريد أن أتذكر ثلاث سنوات أمضيتهن في الحرب.. وطوال ثلاثة أعوام ما عدت امرأة وكان جسمي في سبات وهّن، اليوم لا تخفين مفاجأتهن بما عاشته الواحدة منهنّ، وأمام عيني، «يتأنسن» التاريخ شيئاً فشيئاً.

وأقع على قاصات موهوبات، الواحدة منهنّ مؤثّرة تبثّ في المستمع الاضطراب والانفعال: في حيواتهنّ صفحات يندر أن نصادفها، ولو على صفحات الأثير على قلبي الأديب دويستوفسكي.

ذات يوم، رفضت سيدة (كانت قائدة مقاتلة جوية) اللقاء بي، وشرحت لي الأسباب على الهاتف:» لا أستطيع.

لا أريد أن أتذكر ثلاث سنوات أمضيتهن في الحرب... وطوال ثلاثة أعوام، ما عدتُ امرأة. وكان جسمي في سبات: انقطع الطمث، وهجرتني الرغبة.

مع أنني كنت امرأة جميلة... حين طلب يدي زوجي المستقبلي، كنا في برلين، أمام الرايخستاغ (البرلمان الألماني).

وقال لي:" الحرب انتهت. ونحن أحياء. تزوجيني". وددت لو في وسعي البكاء والصراخ، وصفعه! كيف لي أن أتزوج به؟ أن أتزوجه على الفور؟ هل نظرتَ إلى ما أنا عليه اليوم؟ اجعلني امرأة أولاً (عاملني أولاً كما تعامل النساء): قدّم لي باقة من الأزهار، غازلني، وقل لي عبارات جميلة! وكدتُ أصفعه... ورغبت في ضربه... ولكن خده كان محترقاً، وقرمزيّ اللون، ورأيت أنه فهم ما أعنيه: كانت

الدموع تسيل على خده.. على أثر الجرح الذي لم يندمل بعد.. وسمعت نفسي أقول من دون أن أصدق أنا نفسي ما أقوله: نعم، أتزوجك».

وصلت إلى منزل عائلة... كل من الزوج والزوجة شارك في الحرب، وتقابلا على الجبهة، وتزوجا: تزوجنا في الخندق، صنعت ثوبي من الشاش الرقيق» كان مدفعياً، وهي عامل ارتباط. قاطع الرجل زوجته، وأرسلها إلى المطبخ قائلاً: «أعدّي لنا شيئاً». وبعد إصراري، وافق رغماً عنه على ترك الكلام لها، ولم يمسك نفسه عن توصيتها قائلاً بـ «إروي كما علمتك، من دون دموع ولا تفاصيل غبية من نوع كنت أرغب في أن أكون جميلة، وبكيتُ حين قصّوا ضفيرتي».

«قطعنا مسافة 40 كيلومتراً سيراً على الأقدام... كنا كتيبة كاملة، معظمها من الفتيات. وكنا نموت من الحر، والحرارة 30 درجة على الأقل.

كثيرات من الفتيات أتتهن.. على أي وجه أقول ما سأقوله... كان يسيل الدم على سيقانهن... لم يزودونا بشيء. وبلغنا محطة مياه. ورأينا نهراً.. والفتيات اللواتي أتكلم عن حالهنّ، ركضن الى المياه، ولكن الألمان على الضفة الأخرى فتحوا النار علينا.

وكانوا يحسنون التصويب.. ونحن، كنا نحتاج إلى الاستحمام، وكنا نخجل خجلاً كبيراً من الحال التي كنا عليها أمام الرجال... ولم نشأ الخروج من المياه، وسقطت إحدى الفتيات...». «كنت في الخدمة الليلة.. ودخلت حجرة المصابين إصابة بالغة.. وكان نقيباً مصاباً.. وحذّرني الأطباء قبل بدء دوامي بأنه سيموت في هذه الليلة، ولن تكتب له الحياة. وسألته: كيف الحال؟ هل أستطيع مساعدتك؟ لن أنسى أبداً ما حصل.. فجأة أضاءت ابتسامة وجهه المتعب: فكّي أزرار قميصك.. مضى وقت طويل لم أرَ فيه زوجتي.. احمرت وجنتي، تمتمتُ شيئاً وخرجت.. وعدّتُ بعد ساعة.. وجدته فارق الحياة والابتسامة لم تبارح وجهه».

«وشى بنا أحدهم... وعرف الألمان موقعنا، فحاصروا الغابة وأطرافها، واختبأنا في المستنقعات، وندين بحياتنا لهذه المستنقعات حيث لم يغامر الألمان (بالتقدم إليها).

وكانت المستنقعات تبلع كل شيء، الآلات والبشر، وطوال أسابيع، أمضينا أياماً كاملة واقفات ومستوى المياه يبلغ الرقبة.

وكانت معنا خبيرة برقيات صوتية، وهي أنجبت منذ وقت قليل، والطفل كان بالغ الصغر، واحتاج إلى الرضاعة من الثدي، ولكن الأم لم يكن في متناولها طعام حين الجوع، وشحّ حليبها، وكان ولدها يبكي، وكان الألمان في الجوار... مع كلاب... وإذا سمعونا، ضاعت حيواتنا، المجموعة كلها. كنا نحو 30 شخصاً... وأخذنا قراراً.

ولم تجرؤ أي منا على إبلاغ الوالدة، بما أمر به قائد المجموعة، ولكن الوالدة خمّنت الأمر، وأغرقت الولد المقمّط في المياه، لم يصمد طويلاً.. ولم يعد إلى البكاء. مات! ولم يعد في مقدور الواحدة منا رفع عينيها، والنظر إلى الأم أو إلى أيّ منا..»

عقلية الفتيات

أتأمل أحيانا عقليات الفتيات في اختيار الشباب، وأعلم أن كل فتاة تحلم بالزواج ممن تريده وتهواه، ويرسمه خيالها.؟!

هناك فتاة تحلم بالرجل القوي.

وأخرى تريد الوسيم الجميل.

وثالثة تريد الغني الميسور.

ورابعة تريد المحترم المهذب.

وخامسة تريد شخصًا متحررًا.

وسادسة تريد شابًا صاحب مبادئ.

وسابعة تريد من يمنحها كل شيء.

وثامنة تريد شابًا يكون خاتمًا في إصبعها.

تاسعة لا يستهويها إلا الفتى الهايف التافه أو الصايع البلطجي.!

ولا يمكن أن تتوفر كل هذه المُنى في رجل واحد، فهي مقسمة على الناس، موزعة بين الأفراد.

وأمام كل هؤلاء.. لم أر فتاة تمنت يومًا فتى قبيحا، أو ليس لديه قدر من الوسامة والجمال، فكل الفتيات يحلمن بالشاب الوسيم الجميل، وقد تعجبَ والدٌ يومًا من فتاته حينما تقدم لها شاب أصلع مع احترامي لكل ما طار شعره وأنا واحد منهم، وقال لها: ايه اللي عاجبك فيه دا مفهوش ولا شعراية؟!

فقالت له: إيه يا بابا مهو كويس أهوة.

كثير من الفتيات يؤمن بعقولهن، ويدرسن عواطفهن، وتبحث إحداهن عن الشاب الذي تُقيم معه علاقة روحية، قبل أن تكون علاقة جسدية، وتبني هذا التقدير على رؤيته والحديث إليه ومدى استلطافه وتقبله، ومن الحوار معه؛ قد تفهم إن كان هذا مطلوبها وبغيتها أم لا.

والفتاة الفيلسوفة حقًا، هي من تتنازل عن كل رغباتها في اختيار الشاب الوسيم أو الغني أو القوي، وتتشبث بصاحب المبادئ، إيمانا منها أن المبادئ أثمن ما في الحياة.!

وهناك فتيات يعشن في الوهم، أو الرومانسية القاتلة، فتتمنى إحداهن طبيبًا لأنها طبيبة، أو مهندسًا لأنها مهندسة، وصار التعليم والشهادات هو منبع الاختيار وأساس التوافق، وغير هذا لا يُقبل ولا يُعترف به، ولا يليق بها ولا ينفع أن تعيش معه، فلما تزوجت من طبيبها المنشود، أو مهندسها المأمول، صارت معه في صراع متواصل لأنها تريد أن تثبت ذاتها، أما هو فيريد ست بيت تراعي حياته وشؤونه، لتفيق على وهم كبير خدعها أو صفعها على قفاها.

وبعض الفتيات لا ينبع اختيارهن إلا من وحي بيئتها ومناط تربيتها، فكما تربت وكما رأت أباها وأخاها، فهي تحب أن ترى زوجها وفارس أحلامها.

كذلك المجتمع وتوجهه والانفتاح الذي يشهده العالم، أمور كلها لا نغفل دورها في توجيه الاختيار، فالمجتمع الذي يُعلي القيمة للفنانين والراقصين والمهرجين، يجعل منهم رموزا ونجومًا يتربعن في عقلية الفتيات، بعكس المجتمع الذي يعلي قيمة العلم والدعوة والأدب والثقافة، ويبرز القامات العلمية والفكرية، ويجعل منهم حديثه بالليل والنهار، ليصبحن قدوة ومثلا وأمنية تريدها كل فتاة في فتى أحلامها.

وبعض الأسر أمام الفقر والاحتياج يدمرن حياة فتياتهن، أو بمعنى آخر يبعنهن ويتاجرون بهن لمن يدفع أكثر.. وكم حزنت كل الحزن والأسى حينما رأيت فتاة متعلمة راقية، زوجها أهلها من شاب

أمي لا شهادة له بحجة غناه ويسار يده، ولا أمانع هذا الأمر لو كان هذا الشاب طيبًا مهذبًا يصونها ويقدرها، لكن الأحمق دمرها وملأ حياتها بالعقد، فصارت تبكي بدل الدموع دمًا.. وكانت كلما قرأت أمامه شيئًا حتى ولو كان نشرة الدواء، ذكرته بعقده جهله فثار وتشنج.

تُصاب كثير من الفتيات بصدمة عنيفة في الحياة، لو تمنت زوجها كما يرسم لها خيالها، ثم تكتشف بعد الزواج أنه غير ذلك، أو على غير ما رجته في وجدانها.. أو أنه كان مخادعًا فيما يتظاهر به، فلما ركن إلى الزواج قلب ظهر المجن.! لتصير حياتها إلى دمار، فإما أن تكون حرة وتثور عليه، وتتحدى حماقته، وإما أن تكون وهو حال الأكثرية منهن، غلبانة منكسرة ضعيفة، تريد أن تعيش، لا تملك حولا ولا قوة ولا أهلا يدافعون عنها، إن لم يكن يرفضون حريتها ويحثونها على التزام بيتها.

لا أكبر تلك الفتاة مسلوبة الإرادة، والتي ليس لها رأي ولا كيان ولا اختيار في فارس أحلامها، ومن تريده زوجًا لها.

ولا أقدر كذلك تلك التي تقول: أهو راجل والسلام.

أما التي أحتقرها بقوة، فتلك التي لا تختار الرجل إلا لماله، أحتقرها لتفريطها في حق نفسها أولا، ولازدرائها للقيم ثانيًا.. وهي ترفع شعار: الرجل لا يعيبه إلا جيبه.! وهي في حقيقتها سلعة كأي سلعة تباع في أي دكان.

ونتساءل لماذا كل هذا الحرص والتحري في عملية الاختيار؟ والتي من الواجب والضروري أن توافق هوى المرأة وغايتها؟

إن السعادة منوطة في الاختيار السليم، وقبل الرغبة في الاختيار لابد للفتاة أن تتعلم كيف تختار! فليس الانقياد للاختيار هو الرغبة، وإنما هو الهوى.!

لكنهن لو تعلمن أصول الاختيار وواجباته، لتحولت الاستجابة له إلى حكمة ورشد.

العقل يخطئ أحيانًا

حقًا ما أضأل عقل الإنسان وما أضيقه وأعجزه.!

يظهر ذلك جليًا في كثير من تجارب الحياة ومواقفها التي يعتد بها المرء ويصمم عليها عقله، وينطلق في دروبها من رؤاه، ثم لا تلبث الأيام أن تواتي صاحبها بخطأ اختياره، وسوء فهمه وتردي قناعاته، التي كان مبعثها العقل.!

في أحيان كثيرة، يكون السير في الحياة بالإيمان واليقين والقناعة والرضا، هو أسلم الطرق للفوز بالحياة الهانئة، وتحقيق كثير من الأمنيات والأهداف، أهم شيء أن يُرضي الإنسان دينه وضميره وأخلاقه.

إنه حكم العقل الذي نظرت به يومًا تلك الفتاة الجميلة (ماريا بندل) ابنة مدير أحد المصارف حينما تقدم لخطبتها شاب أحبها وعشقها، لكنه للأسف كان أديبًا يشق طريقه ويكافح بقلمه حتى يثبت ذاته، كان أبرز ما يميز الفتاة أنها تتمتع بالعقل والتفكير السليم، وحينما صارحها الشاب بحبه لها وألح عليها أن تتزوجه، نظرت بعقلها الذي كفر بعاطفته وأعرض عن دموعه التي كان يحايلها بها، فما مثلها أن تقهرها تلك الدموع البلهاء التي لا تُغري إلا الحمقاوات من بنات جنسها، وكيف لها أن تقبل بهذا الشاب الفقير الذي لا يقدر على أن يوفر لها أسباب سعادتها، والحياة المريحة والمستوى الذي تتطلع إليه، هل سيطعمها الحب، هل ستسعدها العاطفة؟!

لم تتردد الفتاة أبدًا في تفكيرها وحكمها لأنها صاحبة عقل راجح كافر بالعواطف، ثم قالت: "إن ديكنز شاب لطيف، لكنه أديب فهل يستطيع أن يعولني بقلمه؟"

وهكذا وقفت شامخة بعقلها، وتركت قلب من أحبها صريعًا محطما، وأسرعت لتتزوج من ثري إنجليزي يملك الضياع والبيوت، ويملك القدرة أن يوفر لها ما تطمح إليه من حياة سعيدة هانئة، ثم كان ما هو أكثر من موقفها، حينما أيدتها أسرتها وراحت تدعمها وتشيد بقرارها ورجاحة عقلها، ولكن ما أن مضت أعوام قليلة، حتى أشهر زوجها الثري إفلاسه، وباع ما كان يملك من ضياع وبيوت، ولم تجد أمامها إلا أن تعيش حياتها الجديدة على الكفاف والضيق، يُحاصرها الفقر وتطاردها الديون.!

وأمام هذه المعادلة الخاسرة، التي كان فارسها وداعمها عقل مفكر لا يخطئ، لا يجب أن يغيب عنا ما صار إليه هذا الشاب الذي أشاحت له ولفظته، وطرده عقلها واستهان بعواطفه، إنه الشاب الأديب تشارلز ديكنز الذي جفف دموعه، وأيقن أنه وهبها لمن لا تستحق، وغالب همومه وانتصر على آلامه،

وأخذ يكتب روائعه القصصية، واستطاع أن يجني بقلمه من المال ما لم يكن يحلم به، حتى أنه صار في زمنه من أغنى أثرياء إنجلترا، وقدسته النساء كما نقل من صوروا حياته.

ما أروع ديننا وهو يجسد حله لهذه المأساة، معتمدا على الإيمان بالغيب الذي ينبئنا أن الدنيا تتغير، والظروف تتبدل، لكن أمام كل شيء لابد أن نقدر المشاعر ولا نكسر القلوب، اعتمادًا على العقل، ذلك الخصم اللدود لكثير من معاني الروح.!

يقول تعالى قوله تعالى:

(وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم)[1]

ليست متحررة بل عاقلة!

هل تتخيل لو قلت لك: إن العرب في كثير من سلوكياتهم كانوا متقدمين متحررين من العقد والطباع التي يظنها الكثيرون في زماننا حشمة ودينا؟!

إننا نقرأ في التراث العربي، فنرى بعض أفعال لو أنها حدثت في هذا الزمن، لاتهم أصحابها بأنهم جريؤون متحررون.. ففي أعرافنا اليوم نعرف أن الرجل هو الذي يخطب المرأة التي تعجبه وليس العكس، وإن حدث يومًا ذلك العكس وقامت المرأة بخطبة الرجل الذي يعجبها، ووجدت في قلبها ميلا إليه، لهاج عليها الناس وذموها وانتقدوها واتهموها بأبشع التهم، وألصقوا بها أرخص الصفات.. والحق أن المرأة العربية كان لها كيانها وقيمتها، وكان المجتمع يقدر أنوثتها ونوازعها وميولها.. فمعنى أن تحب المرأة وتهوى وتعشق، فهذا ليس عيبًا طالما اتخذت قنواته الشرعية، وآدابه المجتمعية، ومعنى أن يبدو من المرأة أنها أحبت فلانا أو يعجبها فلان، فليس في ذلك عيبًا، طالما لم تخرج عن حد الأدب والذوق والحياء.

[1] - النور: 32

فقد أعجبت ابنة نبي الله شعيب بسيدنا موسى، عليه السلام، لكنها -لحداثة سنها- لَّحت بالحب من خلال امتداحها إياه أمام أبيها، وقد جاء ذلك في قول الله تعالى: (قالت إحداهُما يا أَبَتِ استأجرْه إنَّ خيرَ مَن استأجرتَ القويُّ الأمِين[1])

وقد يكون الحب صريحًا مثلما بعثت السيدة خديجة برسالتها إلى الرسول ﷺ بقولها: «يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وشرفك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك» لم تجد السيدة خديجة (رضي الله عنها) من يناسبها في سادة قريش، بينما لم تتردد في إعجابها بالرسول ﷺ، ولولا أن الأنبياء كانوا من الطراز الرفيع جدًا في المجتمع لما سعت إليهم أية فتاة.

وفي مروج الذهب للمسعودي: (جلست " أم سلمة " المخزومية وقد ضاقت بها الأرض بما رحبت، فقد تزوجت مرتين قبل ذلك، فمات كلاهما الواحد تلو الآخر.. فقد تزوجت " أم سلمة " من عبد الله بن الوليد بن المغيرة، فمات، فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموى فمات، وأشفقت على نفسها من مستقبلها المجهول.. فدخلت عليها جاريتُها فرأتها مهمومة، فعلمت ما تحمله من هموم فقالت لها: علامَّ يا سيدتى تجلسين هكذا؟! قالت " أم سلمة ": إن الناس يرمونني بأبصارهم، وكأنني أنا شؤم على من أتزوجه.. قالت الجارية: لا تجعلي هذا التفكير يسيطر عليك، فأنت شابة جميلة، تزوجت من أسياد العرب قبل ذلك، ولك من العز والجاه والمكانة ما لا يُنكر.. قالت " أم سلمة ": إن الرجال يفرون منى كأنني سببٌ في قتلهم.. قالت الجارية: لو جعلت تفكيرك وذكائك في التركيز على الحصول على زوج من سادات القوم وكبراءهم، وأفضل من زوجيك السابقين لكان ذلك خيرٌ وأجدى . وصوبت " أم سلمة " نظرها إلى الجارية.. وكان يدور في خلدها شيء واحد؛ كيف يخرج هذا الكلام العميق من هذه الجارية البسيطة؟

وبينما المرأتان تتجاذبان أطراف الحديث، إذ مر أمامهما رجلٌ جميلُ الطلعة، وسيمُ الشكل، مكتمل الصحة، موفورُ الفتوة فسألت عنه أم سلمة وعرفته، إنه أبو العباس عبد الله السفاح.. وأصبح تفكير " أم سلمة " منصبٌ في أمر واحد، ألا وهو الزواج من هذا الرجل الوسيم.. السيد في قومه.

[1] - سورة القصص: 26

فأخذت تتعرض له، وأرته من نفسها ما يُرغب الرجالُ في الزواج من النساء.. والحق أنها نجحت في ذلك نجاحًا كبيرًا.

ولو لم يكن أبو العباس فقيرًا مدقعًا لتقدم في الحال.

ولما علمت " أم سلمة " وأيقنت بذلك، نادت على جاريتها، وأرسلتها له تعرض عليه أن يتزوجها، وقالت لجاريتها: هذه سبعمائة دينار قدميها له إذا اشتكى الفاقة، وكانت " أم سلمة " تمتلك المال الكثير من الحشم الجواهر وغير ذلك.

فأتته الجارية وعرضت عليه ذلك.. قال أبو العباس: أنا فقير مدقع لا مال عندي، فدفعت الجارية إليه المال.. وما إن وصلت الأموال إلى يديه، حتى أقبل إلى أخيها وطلب أن يزوجه منها، فزوجه إياها، فأصدقها خمسمائة دينار، وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار.. وزُفَّت إليه في ثياب موشاة بالجواهر، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمرًا إلا بمشورتها، حتى أفضت الخلافة إليه.

لقد سارت أم سلمة على هدي خديجة رضي الله عنها حينما أعجبها أبو العباس.. وهي حكمة تدل على نضج عقلها ووفير اختيارها، فلم تكن شابة هوجاء تجري وراء الجمال أو الفتوة، وإنما كان الجمال هو أول خطوة دفعتها لتسأل من هذا الرجل، فلما علمت مكانته وحسبه ونسبه وتسيده في قومة تشبثت به.. ولو لم يكن من أعجبها في هذه المكانة، لما أقدمت على طلب يده، كما تعطي لفتيات هذا الزمان درسًا كبيرًا ومهما وخطيرًا، أن السعادة لا تكمن في المال وإنما في الأخلاق، فلو أنها وجدت ذلك الشاب الخلوق المهذب الأصيل، فلتبادر إليه فإنه كنز لا يعوض، حتى لو أدى بها الأمر أن تنفق هي عليه وتمنحه من مالها.. لأنه يملك مالا يملكه الكثيرون الخلق والفضيلة.. وهي ما فعلته أم سلمه حينما أرسلت له المال ليخطبها وأعلمته أن رغبتها فيه لا يحول بينها وبينه شيء، حتى ولو كان الفقر المدقع..

ومثل هذه الزوجة تصان وترفع على الرؤوس، لأنها قهرت عقدة ينسبها البعض للحياء وهما، وطلبت بلسانها وعبرت عن رغبتها للرجل الذي تتمناه.. وللأسف رجال كثيرون يعتبرون ذلك عيبًا وربما لو اقترن بهذه الفتاة، لاعتقد أنه يقبض بيديه على نقطة ضعفها وبرهان إذلالها.. فيظل طول عمره يعيرها

بأنه هي التي أقبلت عليه وطلبته.. ولم يقم هو بالسعي ورائها.. وهي نظرة رجعية متخلفة، لا يراها إلا رجل ناقص العقل والمروءة.

كما يحمل بعضهم ظهر الرجولة بما لا تقوى عليه حينما يأبى أن يقبل مالا من امرأة لتحقيق غرض فيه سعادتها، وتلك عواطف تفسد كثيرًا من معاني الحياة، لكن العقل حينما يحكم حياة الإنسان يوفر له أمانيه التي يرجوها ويأملها، فقد كان أبو العباس رجل الرجال، وبطل الأبطال، الذي كافح وقاوم وثار وأسقط دولة عتية، ومع ذلك لم يرفض مال امرأة بحجة أنه يخرم الرجولة.

نساؤنا وعقدة شهريار

منذ أكثر من عشر سنوات، استمعت في أحد المنتديات، إلى فتاة تنتمي إلى التيار السلفي، كانت تتحدث بقوة وثبات، وكانت كلماتها تمتلئ بالثقة والايمان، ويعلن اندفاعها المتأجج بحماس عظيم عن إعلاء المبادئ، والانتصار للدين على حساب العواطف والأهواء والأغراض وحظوظ النفس، ولعلك إن سمعت منها ما سمعت، وشعرت منها ما شعرت، لخيل إليك أنها تتحدث في أمر عظيم من أمور الحرب والسياسة، والتحديات الكبيرة الخطيرة التي تواجه الأمة، وكم يكون اندهاشك لو علمت أن الحديث كله كان يدور حول الزواج والتعدد، وارتباط الرجل بأكثر من زوجة، لقد كانت الفتاة تتكلم في ثقة المؤمنين، وثبات الراسخين وتقول: لابد أن نحيي شعيرة التعدد التي أباحها الله، لابد أن نحيي هذا الشرع وهذه السنة التي أماتها فينا من ليسوا منا، هل تدركون الأخطار التي تحيق بالمجتمع نتيجة لغيابها؟ ثم أخذت تسترسل في الحديث وتعدد المفاسد الحياتية، التي تعود على الحياة لغياب هذا المباح، حتى فاجأت الجميع بقولها: أنا عن نفسي.. لن أتزوج إلا بإنسان سبق له الزواج مرة أخرى.! ولو تزوجت خاليًا سأحثه على الزواج بثانية وثالثة.

لقد بدى الكلام غريبًا وعجيبًا ومدهشًا، وكدت أبصم كما يقولون: بالعشرة، أن هذه الفتاة من عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه، بحديثها وفكرها وغرائب وعيها.. وحاولت أن أُعمل تفكيري فيم تقول، وتراجعت بألبوم الذاكرة للوراء، لمئات السنين، لأجد أن هذا الأمر كان مسألة طبيعية، لا حرج فيها في حياة الأسلاف والأجداد، وعلى رأسهم هؤلاء العظماء الذين بنوا مجد هذه الأمة، وشيدوا أكبر

دولة رفعت لواء الحق والعدل والحرية والمساواة، وأبرزت معالم الإنسانية الرفيعة في عالم كان يعيش حياة الغاب.

كان الصحابي الواحد، يرتبط بأكثر من امرأة، ويكفل أكثر من زوجة، وكانت المرأة مع هذا التعدد، تقوم بواجبها ورسالتها ودورها المجتمعي أحسن قيام، وكان الرجل يقدرها ويحترمها ويعطيها كل الحقوق والواجبات، وكان المجتمع الراقي الذي شيده النبي القائدﷺ، ينشد المرأة في كل موطن، ويطلبها في كل ميدان، ويثبت دورها في كل ملحمة، ولم يمنعها أبدًا أن تكون رائدة وسيدة ومتفوقة، لها واجباتها ومهماتها الرسالية التي تؤديها على أكمل وجه منشود، وربما عدها توازي دور الرجل أو تفوقه.

أعرف أن بعض النساء قد لا يروق لهن هذا الحديث، وتنطق هرفًا بأن هذا التعدد، يعود بنا لعصور الحريم والعبودية وتسلط الرجل وزمن (سي السيد)، وكل تلك الأوهام والخرافات التي لا تنبت إلا في عقل امرأة أصابتها عقد الحياة، وقزمت فكرها ووعيها، وبعضهن تتقمص دور الرجل، وترى نفسها قوية فتية عتية، تستطيع القيام بكل ما يقوم به الرجل، بل ربما يدفعها الغرور فتسمح لنفسها أن تتحدث باسم النساء جميعا، ولكن عفوًا سيدتي الزمي حدك ولا تعبري إلا عن نفسك فقط وذاتك فقط.. وأرجو من كل من تتغنى بمثل هذا الحديث، أن تفصل بين موضوع التعدد، وتُجرده عن هذه التصورات الشوهاء، التي تحكي عن أنانية الرجل وتحكمه وتسلطه واستعباده للمرأة.. رجاء أخرجن من عقولكن هذه الخرافات والأوهام، التي تصور لكم عصور ألف ليلة وليلة، ومشهد شهريار وهو قائم على عرشه، وعلى يمينة مائة جارية، وعلى يساره مثلهن، وقيامه كل يوم بذبح واحدة منهن.

لا شك أن تغير نظرتنا لموضوع التعدد، وحيادنا عما كنا عليه قديما، إنما هو من فعل الغزو الفكري، وأثر الإعلام والتغريب الذي يريد الإجهاز على طمأنينة مجتمعاتنا، وإغراقها في وحل الآلام والآهات والمعاناة.. حتى صرنا ننظر للرجل الذي تزوج بأخرى، كأنه ارتكب جريمة، وإذا مر في الشارع يتغامز الناس عليه، ويتندرون بفعلته، وكأنه أتى منكرًا عظيما، بينما الرجل لم يفعل شيئا إلا ما أتاحته له الظروف ونطق به الدين وأباحه له رب العالمين.

ثم ها هو قلمي يرى تلك المرأة التي تتنمر للإجهاز على حروفه بكل سخرية وهي تقول: هل انتهيت من كل مشكلات الدين وقضايا بلادنا المصيرية، حتى تكتب عن هذا الموضوع الذي لا يخدم دينا ولا سلوكًا بقدر ما يخدم شهوة الرجل؟ أنت لا تكتب من أجل القيم أو السلوك، وإنما تريد أن تضيف لحياتكم أنتم معشر الرجال مزيدًا من المكتسبات، التي تدعم من شهواتكم ونهمكم وتحكماتكم وتسلطكم!

ولكني لا أخف عليك أيتها المتنمرة، أن هذا الموضوع شائك وقوي ومهم، ومن أهم الموضوعات التي تسكن آلام المجتمع وتريحه، وتنقذه من كثير من الانحرافات، التي قد لا ترينها بعقلك الأحادي القاصر، لكنها موجودة وكائنة كعلة وداء يعاني منه الكثيرون في المجتمع.

أعرف أن التعدد وجلب ضرة أخرى، يكسر أنوثة المرأة، وربما يهدم كرامتها، ويمزق كبرياءها، ولكن لا تنصدمي حينما أقول لك: إن هذا التصور الهائج، نتيجة للبعد عن روح الدين، وفهم تعاليمه، والغرض من كثير من مباحاته وسننه، ولا أملك إلا أن أحيلك على حديث تلك الفتاة المتسلفة، انظري إليها كيف تحدثت؟ وكيف دافعت؟ وكيف فهمت؟ وبماذا نطقت؟

أعرف أن بعضكن سيصفها بالمتخلفة والمجنونة والمغيبة، لكنها وبكل صدق، أقرب بقوة إلى ديننا وواقعنا منك بنظرتك الأنانية الأحادية الجائرة، التي هي عين التراجع والتخلف والجنون.

لا تسرقي زوجك

هل تتخيل أن تكون بعض الزيجات قائمة على التخوين والتربص وعدم الوفاء والأمان، وهي ترفع شعارها دائما: يا مئامنة للرجال يا مئامنة للمية في الغربال؟!

وبدلا من أن يكون سياجها مبنيًا على الثقة والتعاون والتكامل بين الرجل وزوجته، تأتي هذه الرزايا، لتكون الرباط الذي ينعقد عليه وبه بيت الزوجية.!

نعم هكذا دومًا بعض الأسر حينما تتزوج الفتاة فيها، فإن أول نصيحة تسديها الأم لابنتها، أن تحاول قدر الإمكان أ تخفي من مال زوجها ما استطاعت وتدسه على جنب لينفعها في وقت الضيق.!

وهذا لا يمكن أبدا أن يكون أسلوب حياة، بين رجل وامرأة يفهمان معنى الحياة الزوجية، وما تفرضه عليهما أن يكونا جنبًا إلى جنب وصفًا واحدا أمام عوارض الحياة، لا أن يتحول أحدهما سارقًا لصاحبه.

إن الله تعالى وصف الزوجية بقوله سبحانه: لتسكنوا إليها، ولم يقل لتسرقوا منها.!

أعرف امرأة كانت تحث ابنتها ليل نهار وتؤكد عليها وتوصيها وصية الحكماء الناصحين: أن تشتري الذهب مما تخفيه وتقتنصه من مال زوجها وبدون علمه، ليكون لها سندًا ونفعًا في المستقبل الذي لا تعلم مآله أو حاله، هل يضحك لها أم يُكشر لها بأنيابه وينقلب عليها.؟!

وهكذا تتحول الزوجة بهذه النصائح أو القبائح إلى قرصان ولص، ويظن الزوج المسكين أنه تزوج بامرأة تقف بجواره أمام متاعب الحياة ومشاق الأيام، وهو لا يعلم أنه متزوج من أكبر لص في حياته.. لا يعرف معنى السكينة والتعاون، وأنه أكثر الناس ظلما له حينما يتوقع منه الخيانة والغدر على الدوام، وهي لا شك وساوس حرضت عليها وسولت إليها شياطين الأم التي جعلت من ابنتها سارقة لا تبارى.

كانت هناك أم أحكي لك قصتها التي نقلها لنا ابنها وهو يروي سطوها على مال أبيه الطيب متندرًا.

كانت هذه الأم ماكرة داهية، حريصة على المال بصورة مخيفة، وكانت تعتقد بيقين أن الرجال لا يمكن الاطمئنان إلى وفائهم، ودفعها ذلك الاعتقاد إلى ضرورة أن تمتلك المال، ويكون لها مالها الخاص لشراء بيت يُدر عليها من الدخل ما يغنيها عن زوجها إذا جاء اليوم المرتقب وتنكر لها.

وبدأت من أول يوم للزواج تضيف القرش على القرش، والمليم على المليم، في دفتر توفيرها الخاص بمكتب البريد، تقتطع ذلك من مصروف البيت الذي كان يعطيه لها الزوج، حيث لم يكن لها أي مصدر للدخل، وكان الزوج لا يبالي كثيرًا بالمال، وهو ما شجعها ودفعها لتواصل مهمتها أكثر وأكثر وتقتنص منه أكثر وأكثر.. وكانت كل يوم وفي خبث ودهاء، تبالغ له في تصوير ما يتكلفه الطعام والشراب ولوازم البيت من مال، مما يدفع الزوج الطيب لمزيد من الانفاق، وإعطائها ما تطلب دون نقاش، وذات يوم فاجأته الزوجة بأنها تمتلك (400) جنيه في دفترها وتريد أن تشتري منه نصف البيت، اللذان يسكنانه، وكان الزوج رجلا طيبًا فوافق على ذلك، رغم أن ثمن هذا النصف يفوق ما كانت تمتلكه بمراحل، ولكنه كان يحب أن يرضيها، ثم تصر على تسجل هذا رسميًا، فيطيعها الزوج ثم لم تنقض

سنتان أخريتان، حتى أعلنت أنها تمتلك بضع مئات أخرى، وترغب في شراء النصف الآخر من البيت، فيوافق الزوج الطيب على رغبتها ويسجل البيت كله باسمها، ثم لم تمض بضع سنوات حتى تقول لزوجها ممازحة: إنه يسكن في بيتها دون إيجار، وتتحول النكتة إلى جد، فيقبل الزوج أن يعطيها إيجارًا شهريًا، وليتها استراحت بهذا وقنعت، ولكنها ظلت طوال هذه السنوات تتندر بضعف هذا الإيجار وتفاهته، فإذا بها تطلب كل سنة زيادة في الايجار، والزوج الطيب يقبل عن طيب خاطر.

كان ابنها الناقل لهذه القصة يقول عنها: كان حصول أحد منا على بضعة قروش من أمي، أشبه بمحاولة استخراج الماء من الصخر.!

هل تعلم من هذه الأم؟

إنها زوجة الكاتب والأديب الكبير أحمد أمين، وأم الكاتبين والمفكرين حسين أمين وجلال أمين.

هناك زوجات تسري فيهن هذه العادة، ولكن القصد منها خدمة البيت وحسن التدبير ومساعدة الزوج، وشراء أشياء تراها ضرورية للسكن والاولاد والحياة.

كما توجد هنا محطة أو تساؤل لابد من الوقوف عليه وطرحة، ماذا لو كان هذ الزوج مقترا بخيلا لا ينفق على أبنائه ولا يعطي زوجته؟

أعتقد أنها في هذه الحالة لو سرقت منه، فإنها لن تكون لصة، وإنما تكون بطلة همامة.

ولا يحسبن القارئ أننا نلوث سمعة هذه المرأة الكريمة بما ذكرنا من هذه النادرة، فعقليتها ومستواها الفكري هو من أوعز لها بهذه الخواطر المزعجة، والتي كان الزوج وهو المفكر الكبير يدركه ويتعامل معه بطيب نفس ولامة نية.

ولقد مر بنا فيما سبق كيف كان لهذه الزوجة الطيبة، دور في حياة أحمد أمين حين ساعدته وتولت تربية أبنائه الكثر، حتى يتفرغ للكتابة والقراءة والبحث؟

المتعلقون بالنساء

يقولون: إن وراء كل عظيم امرأة

قد يكون هذا صحيحًا وواقعا.. ولكن التاريخ في كثير من حالاته، يؤكد أن بلوغ العظمة لا يكمن إلا في التخلي عن النساء، خاصة في أولئك الذين يكافحون ليكونوا أبطالا ومصلحين وقادة وصناع مجد ودولة وصولجان.

ما زلت أتذكر مقولة للشيخ محمد الغزالي في كتابه الفريد (دستور الوحدة الثقافية) وهو يتكلم عن إمامه حسن البنا فيقول: (لقد أفلت الرجل من غوائل المرأة)

والحق أن هذا الوصف من صفات العباقرة العظماء، وأن من كان كذلك، فقد فوت على أعدائه فرصة عظيمة في إغرائه أو إغوائه أو إثنائه وإضعافه، فإن أول الأسلحة التي يستخدمها أعداء الرجل وتتجه إليها أنظارهم، هو حظه من النساء، كيف هو وما مبلغه؟!

لقد كانت المرأة في حياة السلف الصالح وسيلة العفة، وممارسة الفطرة التي فطر عليها الإنسان، وشريكة الحياة، يأخذون بها ويتعايشون معها، و لكن لا تتعلق بها قلوبهم إلى الحد الذي يفتتنون به فتنة تصرفهم عن غاياتهم العليا، وتطلعاتهم المثلى.

لا يمنع أبدًا أن تحب زوجتك، وتكرمها وتحسن إليها، فهي بشر مثلك تمامًا لها رسالتها وغايتها التي تتوافق فيها معك وتعينك عليها، وترجو منك العون فيها، ويكمل بعضكم بعضا.

لكن أن تكون المرأة هي الغاية والهدف الذي تعيش له ومن أجله الرجل، فهو عمل منكور مرفوض في حياة السلف المغوار، الذي هب لينقذ العالم من ظلم الإنسان لأخيه الانسان ويرسي في الأرض معالم الحق والعدل والمساواة.!

يمكن للمرأة أن يهيئ لها القدر أن تكون في حياة الرجل العظيم، تدعمه وتساعده، وتسخر كل إمكاناتها لمساعدته، وكم رأينا عظماء وكتبنا عنهم أشقتهم نساؤهم ولم تمنعهم من السير على دروب الخالدين.

حينما حدث عداء كبير ونزال بين عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)، وشارلمان ملك النصارى، وجد شارلمان في عبد الرحمن ما يدعوه للإعجاب به والانبهار بسماته وصفاته، فتمت بينهما معاهدة ألزمت شارلمان أن لا يتطلع إلى الأندلس، ثم خطرت فكرة المصاهرة بين الاثنين بأن يتزوج عبد الرحمن ابنة

شارلمان، ولكن عبد الرحمن كما جاء في وصف المؤرخون له: كان في شغل عن المرأة والحريم، فلم تتم المصاهرة ولكن تمت المعاهدة.

وكانت الدولة الإسلامية الناشئة لا تقبل من يكون أبطالها هائمين في حب النساء، أو عبادا للمرأة وجمالها الذي يمكن أن يشغلهم عن صناعة دولة الإسلام الكبرى التي انتدبهم لها محمد رسول الله ﷺ، وجعلها هدفهم الأعظم.

لقد كان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجها وأبرهم بوالديه، فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حبًا شديدا، فثقل ذلك على أبيه، فمر به أبو بكر يوما وهو في غرفة له فقال: يا بني إني أرى هذه قد أذهلت رأيك وغلبت على عقلك فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك، فقال أقسمت عليك إلا طلقتها، فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها، فجزع عليها جزعًا شديدا، وامتنع من الطعام والشراب فقيل لأبي بكر: أهلكت عبد الرحمن فمر به يومًا وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس ويقول هذه الأبيات:

فو الله لا أنساك ما ذر شارق.. وما ناح قمري الحمام المطوق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها..ولا مثلها في غير شي ء يطلق
لها خلق عف ودين ومحتد .. وخلق سوي في الحياء ومنطق

فسمعه أبوه فرق له وقال له: راجعها يا بني، فراجعها وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف، حيث أصابه سهم فقتله، فجزعت عليه جزعًا شديدًا وقالت ترثيه

فآ ليت لا تنفك نفسي حزينة .. عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
فتى طول عمري ما أرى مثله فتى.. أكر وأحمى في الهياج وأصبرا

وأمام هذه التعلق الكبير.. إلا أن عبد الرحمن قتل شهيدا، فقد غلبت غاية العظماء وهمة الكبار على حب المرأة، والتعلق بالنساء.

ويروى أن المأمون أراد الخروج في بعض الحروب، فوقفت جارية له ممن شغف بهن، ورغبت إليه أن لا يخرج، فقال: لولا قول جرير:

قوم إذا ما حاربوا شدوا مآزرهم - دون النساء ولو باتت بأطهار[1]

يظن البعض ممن يقرؤون هذه السطور، أننا نباعد بين المرأة وبين دروب العظمة، وأننا بهذا نظلمها ظلما بينا لأننا جعلناها في واد، وجعلنا المجد ودواعيه في واد آخر، أو أننا حصرنا صور العظمة والفخار على الرجل وحده، والحق أن المرأة منبع العظمة ونواة المجد وموئل الفخار، وإلا فأين تكون إذن هذه الأم التي تربي أبناءها على معاني البطولة والسبق والنجاح، وتدربهم على النجدة والمروءة والفداء؟ وتخرج أبطالا فاتحين وقادة ميامين، دوخوا الدنيا بذكرهم، وصدعوها بآثارهم؟ وأين نحن كذلك من هذه الزوجة الكريمة التي تشد من أذر زوجها في كفاحه ليبلغ في الحياة مراتب العباقرة الأفذاذ العظماء؟ ألا تذكرون أسماء ذات النطاقين وكيف شحذت همة ولدها البطل، حينما كان مترددًا في مواجهة خصومه، وكيف دفعته للنزال دفعًا فيه كرامته، وحسن ذكره وشرف حياته، وهي تعلم أن العاقبة قد تكون في قتله وصلبه وفنائه؟

إننا أمام أسماء، لا يمكن إلا أن ننحني إكبارا وإعظاما لبسالتها وسموها وبطولتها الفريدة.!

إذن بقي أن نقول: إن حديثنا بعد هذا البيان واضح وظاهر، حينما نخصص حالة بعينها وهي حالة أولئك الذين يتعلقون بالنساء عشقا وهياما، ويغرقون في حبهن دعة ودلالا، كيف لهن أن يبلغن آيات المجد، وعقولهم لا تقبل إلا المرأة متربعة على عروشها؟ ولا تستسيغ متعتهم إلا جسد المرأة يمتزجون به ويتقلبون عليه ليل نهار؟ هؤلاء من نتحدث عنهم ونقصدهم، ولم نرد بحديثنا أبدًا هذا المعنى الذي يمكن أن يتسرب للذهن في غفلة وبعض غموض، من أن المرأة والعظمة خصمان لا يقبلان التمازج.

كما أن المشكلة ليست في حب المرأة أو التعلق بها، لكن المشكلة تكمن في أخلاق الرجال ومعدل الرجولة والنخوة والمروءة، الذي يتراجع جيلا بعد جيل في المجتمعات العربية والإسلامية للأسف.

أيتها النساء تذكرن خديجة

أتدري من هي المرأة البلهاء؟ إنها هي تلك المرأة التي تفتقد الرقة والحنان والأنوثة في تعاملها مع زوجها، إنها لا شك تخسر كثيرًا، وتجهل كثيرًا حينما غاب عنها هذا العنصر السحري الذي يأسر القلب ويملك الروح.

---

[1] - الصواب أن البيت للأخطل وهي من قصيدة له مدح بها يزيد بن معاوية وقوله : شدوا مآزرهم كناية عن ترك الجماع ، لأن المئزر وهو الازار إنما يحل عند إرادة الجماع ، وقوله ولو باتت بأطهار معناه: أنه يجتنبها في طهرها وهو الوقت الذي يستقيم له غشيانها فيه.

من البلاء الكبير أن تكون زوجًا عاطفيًا رومانسيًا، وتبتلى بامرأة جافية متصلبة باردة في الحديث والحركة والتصرف والمشاعر، ويملأ البرود حياتها في كل شيء.! ومن البلاء الأكبر أن تفتقد المرأة صفة الحنان، لأنها بهذا فقدت معنى الأنوثة ومعنى كونها امرأة، فالشعور بالحنان هو السحر الذي يحول الرجل القاسي إلى رجل لين، والرجل الجبار إلى رجل رقيق، وذو الهيبة الطاغية التي تنخلع لرؤيته القلوب، إلى حمل وديع، يأنسه الناس ويألفونه، إنها خِلة تقلب الموازين، وتبدل الأحوال، وتغير كثيرًا من مشاعر الرجل التي تُسيطر على قلبه.

ربما تكون المرأة جميلة وفاتنة، تسحر أعين الرجال بزينتها وبشرتها وجمال ملامحها، لكنك حينما تدخل في أعماقها تجد برودًا وقسوة لا تنسجم معها قلبك وعواطفك، وسبحان الله حينما يتحول هذا الإحساس بالانبهار والإعجاب إلى بغض ونفور.!

بعض الناس يستنكر على كثير من الرجال حينما يرى أحدهم تزوج بامرأة غير جميلة، لا تملك الكثير مما يتمتع به غيرها من الأنوثة والجاذبية، وذلك لأنهم لا يعرفون شيئًا، ولا يدركون أن كثيرًا من الرجال يُبهرهم الحنان أكثر مما يبهرهم الجمال، وأن احتياجهم للمرأة الحانية، تمامًا كحاجة الروح للجسد، وأنهم رأوا في هذه التي لا تعجبهم، معنى الجمال الحقيقي، جمال الروح وجمال القلب والحنان المفقود. إن بعض الناس يرى ذلك من الترف النفسي، ولا يفعله ولا يريده وينشده إلا الناس الفارغة، والشخصيات التافهة، ولو أن مشاغل الحياة وهمومها تخيم على عقولهم، لما فكروا في مثل هذه الأمور.! لكن مهما اختلف الرأي، وتعددت وجهات النظر، يبقى الأمر طبعًا وغريزة يحتاجها كثير من الرجال، وتتوق لها قلوبهم ومهجهم، وصورة يتمنون رؤيتها ووجودها في زوجاتهم، ويرون في عنصر الحنان في نفس المرأة وعواطفها، عاملا مهما من عوامل نجاح الحياة الزوجية، وأعظم صفة تقدمها المرأة لرفيق عمرها.

هل تعلمي أيتها المرأة.. أن الحنان هو صمام الأمان لحياتك الزوجية، وهو الختم أو القفل الذي تختمين به على قلب الزوج فلا يلتفت إلى غيرك، ولا يفكر في سواك، بل يخجل كثيرًا من نفسه لو فعل شيئًا من هذه الأفاعيل، ليتذكر على الفور أنك إنسان حنون لا يستحق أبدًا أن يقابل بمثل هذا النكران وهذا الجحود.

لكننا في نفس الوقت نقول وننصح المرأة التي تبغض زوجها وتريد الانفصال عنه: أن تشعره أول ما تشعره بفقد الحنان، لأنه أسرع طريق لهجرها ونسيانها والانفصال عنها أو كرهها وبغضها لو بقيت معه تحت ذمته.

أيتها المرأة التي تبحث عن السعادة الزوجية، كوني حانية في حياتك مع زوجك، تصنعي الحنان، وتكلفيه وأدمنيه وأظهريه في حديثك وحركتك ومواقفك، وحتى في صمتك وضحكك وبكائك، زلزلي قلب الزوج واشحني حياته بهذا الحنان، ليكون في النهاية خاتما في إصبعك وأسيرا في هواك.!

تأملي دومًا صورة خديجة رضي الله عنها، أعظم امرأة في تاريخ المسلمين.. انظري كيف كانت حانية وكيف كانت رقيقة وكيف كانت تحوط زوجها النبي بعظيم الحب وعظيم الحنان؟

ندرك أن هناك من يريد الصورة العكسية للمرأة، التي تفتقد حنان زوجها وقد ننوه عليه خلفا، لكن الرجل لو فقد الحنان، فمن الممكن أن تسير الحياة الزوجية في طريق وعر يصيبه كثير من العوج، لكن المرأة حينما تفقد الحنان في نفسها تكون الطامة أكبر.. لأنها فقدت شيئا تؤكده الطبيعة في عنصرها.. مجرد وجهة نظر مع إيماني الشديد بضرورة الحنان بين الطرفين.

المرأة التي أضاعت دولة

أم الخليفة، زوجة الخليفة، أخت الخليفة، جارية الخليفة.!

يالها من أسماء أو ألقاب كان لها تأثيرها الثقيل في مستقبل الحياة السياسية، التي مرت بها كثير من دول الإسلام.

كانت المرأة منهن تجمع كيد الدنيا في قبضتها، حتى يتولى ولدها أو أخوها أو زوجها الحكم، كانت تكيد وتتآمر وترشو وتسلط وتقتل وتتحول إلى كابوس مزعج أو سرطان ينخر في مصير الأمة لتبلغ مأربها وشهوتها.

ولك أن تعرف أن امرأة واحدة، كان لها الفضل والسبب في ضياع الحكم الأموي من الأندلس، وخلوصه لغير الأمويين، واستهلال عصر ملوك الطوائف، الذي أوشك معه أن يهوي ملك الإسلام في الأندلس، لولا أن قيض الله للأمة بطلها المغوار سيد المسلمين يوسف بن تاشفين.

كان (المنصور بن أبي عامر) شابًا طموحًا رحل إلى قرطبة والتحق بجامعتها، ولما انتهى من دراسته، فتح دكانًا بجوار قصر الخلافة، وكان يكتب فيه للناس شكاواهم وعقودهم، واتصل به في هذا الدكان بعض خدم القصر، والذي اتصل عن طريقهم إلى السيدة الأولى، والمرأة القوية، زوجة الخليفة الحكم، وأم الخليفة الصغير (صبح البشكنسية) التي أعجبت بمهاراته، وأوكلت إليه القيام ببعض أمورها، فأظهر حذقًا ومهارة فيما وكل إليه، فأوصت الخليفة به فولاه قضاء بعض النواحي، وبدأ نجمه يسطع في الظهور حتى وصل إلى كرسي الوزارة، الذي أظهر فيه كفاءة لا نظير لها.!

كانت صبح جارية أندلسية واسمها إيرورا، وكانت تتمتع بجمال وافر، وكان ابن أبي عامر شابًا وسيما ذكيًا، ويقال: إنها وقعت في حبه، واغتنم هو هذا فأظهر لها حبه، وغمرها بالهدايا ومعسول الكلام، وصار هو وكيل أعمالها هي وولديها، ولما مات الخليفة كانت صبح هي الوصية على ولدها، وتعتمد في كل شيء على ابن أبي عامر، أي أنه صار كل شيء في الدولة وصار بمقام الخليفة.

ومن هذا المنصب بدأ المنصور يحيك مؤامرات عديدة، وتدبيرات شيطانية ومكيدة، حتى يثبت أقدامه ويرضي طموحه، الذي يجنح إلى أكثر من الوزارة، فحينما مات الخليفة الحكم، اتجه المناخ العام للبيعة لأخيه المغيرة أو عمه، ولكن ابن أبي عامر، خنق المغيرة بتحريض السيدة صبح حتى خلا الجو لابنها هشام، وتم إعلان البيعة له وهو ابن عشر سنوات.

ثم تآمر على الحاجب (جعفر المصحفي) و(غالب بن عبد الرحمن) قائد الجيش فأوقع بينهما حين تزوج بنت غالب، واتهم المصحفي بالسرقة والخيانة، وحكم عليه بالسجن الذي ظل فيه حتى مات، وتولى منصبه بعد سجنه.. كما دبر المكيدة ضد صهره حتى قتله، وقدم البربر ووثق فيهم، وأبعد العرب ونحاهم، ثم كان هذا التصرف الذي وصفه الدكتور شلبي في موسوعته التاريخية، بأنه التصرف المدمر، والذي قام به ابن أبي عامر حتى تخلو له ساحة الحكم، وهو القضاء على زعامات الأمويين الموجودين بالأندلس، إما بقتلهم أو إبعادهم إلى الشمال الأفريقي، واتخذ لذلك حجة، هي تأمين الخليفة من أولئك المتطلعين للسلطة، الذين اتهمهم بمؤامرات لم يقوموا بها، وكان من نتيجة هذا العمل الظالم، أنه بعد خلع هشام بن عبد الرحمن الناصر سنة 399هـ، لم يكن في الساحة من يملأ الفراغ

من الأمويين، وانتهت دولتهم وضاعت خلافتهم، وظهر بعدها عصر ملوك الطوائف الذي كان عصر الخيانة والضعف والضياع.

كل هذا بسبب امرأة واحدة، فتحت الميدان لهذا الطماع النهم المسعور، ليقتل ويتآمر ويُنكل ويظلم ليرضي أطماحه وأطماعه وشهواته وتشبثه بالملك.

ورغم هذه السيرة السيئة من التآمر والغدر، إلا أن صفحة أخرى أو سيرة أخرى تحكي غير ذلك أو تنقل صورة بسلوك آخر، فقد كان في حكمه بارعًا سديدًا وبطلا في قتال النصارى حين خاض ضدهم 54 معركة لم يهزم فيها ابدًا، ووصل بعساكره إلى مناطق وحدود لم يصلها غيره في أوروبا حتى أنه وصل إلى ليون في فرنسا.. قال المؤرخ الأندلسي ابن عذاري، في كتابه «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»: «غزا محمد بن أبي عامر في حياته أربعًا وخمسين غزوة، لم يُهزم أبدًا في واحدة منها».

ويقول الدكتور محمد عبد الله عنان في كتابه «دولة الإسلام في الأندلس»: «كان مقتديًا بحديث رسول الله ﷺ: «وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ، فكان من عادته الحاجب المنصور في جهاده وبعد كل معركة أن ينفض ثوبه، ويأخذ ما يخرج منه من غبار ويضعه في قارورة، ثم أمر في نهاية حياته أن تُدفن معه هذه القارورة؛ وذلك حتى تشهد له يوم القيامة بجهاده ضد النصارى».

ويقول «ابن الاثير»: «كان المنصور بن أبي عامر عالماً، محباً للعلماء، يكثر مجالستهم ويناظرهم، وأكثر العلماء ذكر مناقبه، وصنفوا لها تصانيف كثيرة، وكان حسن الاعتقاد والسيرة، عادلاً، وكانت أيامه أعياداً لنضارتها، وأمن الناس فيها».

ويبقى الحق فمهما كان بطلا مغوارًا فاتحا منتصرًا، فإن التاريخ يعرفه كما ذكرنا بوجه آخر، وهو الخائن الغادر القاتل المتآمر.!

نادوا المرأة باسمها

في أعرافنا وما درجنا عليه، كنا نشعر الخجل لو عرف أحد ممن نتعامل معهم من أصدقائنا وزملائنا اسم أمهاتنا، بل لو ردد أمامه اسم أخته لشعر برجفة في نفسه.. رجفة لا تعرف تفسير منبعها أهي من الخجل أم مسًا بالشرف.!

هناك قوم يعتبرون أسماء أمهاتهم حرمة مقدسة، ومن العار الكبير أن يعرض اسمها على العامة، أو أن يقول له أحدهم: هل أمك فلانة.؟

وهناك غيرهم من يعتبر مجرد ذكر اسم أمه أو اخته انتهاكا للشرف، فلا يجب أبدًا أن يذكر اسمها أو تتردد سيرتها.

وكما قيل: لقد ربطنا دومًا بين الحريم والحرام.!

وهذا سخف كبير لم تنص عليه وتوحي به، إلا عادات رجعية بالية، لم يأت بها دين، ولم تحض عليها إلا ذكورة مفرطة، وغباوة مستقرة في وجدان المجتمع وعقول الكثيرين من فئاته.!

انظر للجاهلية كيف كانت تحترم المرأة ولا تعد ذكر اسمها عيبا كما نفعل نحن ونتوارى خجلا لو ذكر اسم أمهاتنا أو أخواتنا أمام الناس.!

فحين نزل الوحي بقوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِين) قام النبي ﷺ وكان مما ناداهم به: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شِئْتُم»، لقد نادى على نساء عائلته هكذا وعلى الملأ دون خجل وكسوف، أو تردد واستجابة لسلطان العيب والعورة والخجل.

كنا ثلاثة أصدقاء في رحلة في إحدى الحدائق، وكان كل منا يصحب أسرته وأولاده ويعرف بعضنا بعضًا معرفة دقيقة، وبيننا قرابة ونسب وجيرة، وكنا نحن الرجل نجلس على مقربة من السيدات، وصار صاحباي كلما أراد أحدهما شيئًا من زوجته، نادي عليها باسم ابنها أو ابنتها، أو يقول بعلو صوته: يا جماعة.. لم يعجبني المشهد، فقلت لهما زوجتك اسمها كذا وأنت زوجتك اسمها كذا، أليس هذا صحيحًا فضحكا وقالا: نعم، فقلت لهما، فلم الحرج من مناداتهما باسمها، هل هناك غريب تخشى أن يعرف اسمها؟ وهل لو عرف اسمها فذلك يعني أن سترها وحجابها قد كشف عنها؟

انت تعرف اسم زوجتي وأنا اعرف اسم زوجتك، وكلانا نعرف اسم زوجة الثالث، فلماذا نعد مناداتها باسمها عيبًا وخرقا للتدين وقيمه وتعاليمه وذوقه؟!

اسم الانسان يعني ذاته وشخصه ومناداتك باسمه، يعني أنك تقدره وتجله، أعرف بيوتا لا ينادي الرجل زوجته فيها باسمها فيقول: يا ولاد، حتى الزوجة لا تنادي زوجها باسمه أبدا، وتحرمه من سماع اسمه على صوتها، لينتقل من فقد الاحترام إلى فقد المحبة والحنان.

بعض الفتيات يذكرن اسمهن في الفيس باسم أو جملة مستعارة، لأنها تخشى أن يعرف أحدهم اسمها، فيتولد إليها شعور أن شرفها وسمعتها معرضة للخطر، وهي قبل أن نعترف لها أنها في بيئة محافظة حيية متدنية، يمكن جدا كذلك أن نعترف أنها نابعة في بيئة جبانة، تهدر حقوق المرأة ولا تعترف بكيانها.!

لقد تعجبت حينما علمت أن اسم تيمية، هي جدة شيخ الإسلام وعلم الأمة الإمام ابن تيمية فقد كان ينسب لها، وكان يعتز بذلك جدًا ولم يخجل منه، وهكذا شأن العقلاء دائما.!

كانت هناك فتاة موهوبة تملك خيالا خصبًا وبيانا سيالاً، عشقت الكتابة وبدأت تنشر مقالتها وقصصها في الصحف والمجلات والمدونات، ولكنها للأسف حرمت من ذكر اسمها، وأن تمهر هذه المقالات وتنسب هذه المنتجات إلى شخصها، فقد منعها أبوها من كتابة اسمها، لأن الرجعي كان يرى أن ذكر اسم ابنته عاااااااااار كبير وخرق للعفة، وفاحشة لا تمحوها إلا الدماء.

لماذا يحرم هذا الأب الغبي ابنته من شعورها بذاتها، وتأكيده لموهبتها، واحترامه لكيانها؟ إنه أسير عادات حمقاء بالية، تهين كرامة الإنسان حينما تعلمه أن يتوارى خجلا عن اسمه.

ومن المفارقات أن نجد في بطاقات الأفراح جهدا في التعرف على اسم العروس، فلا نستطيع لأن العائلة المحافظة، كتبت فقط أول حرف من اسمها المصون الذي لا يجب أن يعرفه أحد.. وحينما تذهب للقاعة لا تجد العروس، وإنما تجد راقصة محترفة صدرها عار وشعرها مرسل وعلى أعلى درجة من التبرج والانحلال.. وكما قال أحدهم يخفون اسمها ولا يخفون جسدها.!

عبقريات أنثوية

بعض الرجال لا يتصورن أن تكون المرأة عبقرية، أو يصدر منها نبوغ يُبهر الدنيا، ويظنون أن كلمة الابداع والنبوغ مقرونة بالذكورة وحدها، وأن المرأة مهما علا عقلها، فإنها لا تبلغ الرجل أو تقارن به في فن من الفنون.

وهذه العقول القاصرة الضعيفة لا ترى موقع المرأة وميدانها إلا في مكان واحد، في البيت.. حيث النوم والفراش، وإذا حدثت أحدهم عن قدرة المرأة، فإنه يدندن بقول الشاعر:

ما للنساءِ وللكتابة ... والعمالة والخطابة
هذا لنا ولهن منا ... أن يبتن على جنابة

والحق أن المرأة لولا مشاغلها والتزاماتها الأسرية، وتحملها لمسؤولية البيت والأولاد التي تقتل أي إبداع، لفاقت الرجال نبوغًا وإبداعا وعبقرية وسموًا في معالي الأمور.

ومن عجب أن ترى الغربيين وأذنابهم من الشرقيين ينسبون للإسلام زورًا وينعتونه بهتانا بأنه مهين المرأة وكابت عنصرها، والحق أنهم كاذبون مخادعون ظالمون لحضارة ودين، كانا أول من عرف للمرأة قيمتها، واحترم كيانها ورفع شأنها واعتز بمكانتها وأقر فضلها.

إن ديننا قلب موازين الجاهلية في كل شيء، ومن أهم ما قلب ازدرائها للمرأة ونظرتها المنكرة للنساء، وكفرانها العتي بمواهبها وقدراتها وعقليتها، فأفسح لها المجال وأبان لها الطريق، فصارت مكرمة عزيزة، لها جهودها ونبوغها وحضورها وأثرها.!

وفي تاريخنا الإسلامي كانت حركة علمية فسيحة لم يخل ميدانها من المرأة التي أثبتت وجودها ومكانتها، فمنذ مطلع الإسلام وفجر الرسالة، كانت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، من أعلم الناس بالقرآن والفرائض والشعر وأيام العرب (التاريخ)، حتى قال هشام بن عروة فيما روى عن أبيه: «ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعرٍ من عائشة»

وقال الإمام الحافظ السيوطي في ألفيته:

والمكثرون في رواية الأثرْ ... أبو هريرةْ يليه ابن عمرْ
وأنس والبحر كالخدريّ ... وجابرٌ وزوجة النبي

وقال جمال الدين بن ظهيرة:

سبع من الصحبِ فوق الألف قد نقلوا ... من الحديث عن المختار خير مُضر
أبو هريرةْ سعدٌ جابرٌ أنس ... صدّيقة وابن عباسٍ كذا ابن عمر

ولك أن تعجب من إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وقد كانت له من الأبناء يحيى وحماد وفاطمة، لم يرث الأولاد علم أبيهم وإنما ورثته فاطمة، التي كانت تختبئ في ستر لها إذا جلس أبوها للدرس وأخذ

الطلاب يقرؤون عليه، فإذا لحن القارئ أو أسقط شيئًا نقرت الستر فتنبه مالك وقال للقارئ: تركت كذا وكذا.

ولما زوج سعيد بن المسيب كريمته لطالب علم فقير، هم بعد الزواج للخروج إلى درس أبيها فقالت له: إلى أين فقال: إلى طلب العلم عند سعيد بن المسيب، فقالت له: اجلس هنا أعلمك علم سعيد.!

وكانت هناك العالمة الجليلة السيدة فاطمة بنت الحسين بن علي، من أنبغ نساء عصرها وأكثرهن علماً وورعاً، وقد اعتمد على روايتها كل من ابن اسحاق وابن هشام في تدوين السيرة النبوية.

والسيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، كانت تحضر مجلس الإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة، واشتهرت بعلمها وصلاحها، وبعد انتقالها إلى مصر، أقامت مجلساً علمياً كان يحضره أشهر علماء عصرها، وفي مقدمتهم الإمام الشافعي الذي كان يزورها ويتدارس معها مسائل الفقه وأصول الدين، ولم ينقطع عن زيارتها والاستزادة من علمها حتى توفاه الله، وكانت له من المشيعين.

وزينب بنت عباس البغدادية، كانت من أهل الفقه والعلم، وكانت تحضر مجالس شيخ الإسلام ابن تيمية.

وشهدة بنت الأبري الكاتب، كانت من المبرزين في علوم الحديث، وقد تتلمذ على يديها عدد كبير من العلماء، منهم ابن الجوزي وابن قدامة المقدسي، وأم حبيبة الأصبهانية، كانت من شيوخ الحافظ المنذري الذي ذكر أنه حصل على إجازة منها، وفاطمة بنت علاء الدين السمرقندي، كانت فقيهة جليلة، وكانت ترد على زوجها الشيخ علاء الكاساني صاحب البدائع خطأه في الفقه إذا أخطأ.

وفي الغرب الإسلامي، كانت فاطمة الفهرية أم البنين، التي بنت جامع القرويين في فاس في القرن الثالث الهجري، الذي صار بعد فترة وجيزة من بنائه، جامعة إسلامية هي الأولى من نوعها في العالم الإسلامي، بل في العالم كله، كانت عالمة فاضلة محسنة، كما كانت أختُها مريم، التي بنت جامع الأندلس في فاس أيضا.

ومن أشهر المحدّثات في الأندلس، أم الحسن بنت سليمان، ذكر، نها روت عن محدث الأندلس بقي بن مخلد سماعاً منه وقراءة عليه، وقد حجت والتقت بعلماء الحجاز، وسمعت منهم الحديث والفقه، وعادت إلى الأندلس ثم حجت مرة ثانية، وتوفيت في مكة المكرمة.

وحينما رحل ابن دحون حبيب بن الوليد إلى المشرق، رأى في المدينة جارية ضليعة في علم الحديث فتزوجها وعاد بها للأندلس وكأنما عاد بثروة هائلة.

ومن المحدثات الفقيهات في الغرب الإسلامي أيضا، أسماء بنت أسد بن الفرات، التي تعلمت على يد أبيها صاحب الإمامين الكبيرين أبي حنيفة ومالك بن أنس، واشتهرت برواية الحديث والفقه على مذهب أبي حنيفة.

وخديجة بنت الإمام سحنون العالمة الجليلة التي قال عنها الإمام القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»: «كانت خديجة عاقلة عالمة ذات صيانة ودين، وكان نساء زمانها يستفتينها في مسائل الدين، ويقتدين بها في معضلات الأمور». وقد ذكر ابن حزم في كتابه الشهير المترجم إلى معظم لغات العالم «طوق الحمامة في الألفة والايلاف»، أن النساء في الأندلس، كن يعملن في مهن متعددة، منها الطب والدلالة والتعليم والصنائع كالغزل والنسيج، وقد ذكر فيه أنه تعلم عليهن في صغره.

والقائمة تطول وتطول، ولكننا لا يسعنا إلا أن نقول بكل ثقة:

أيها العالم.. نحن أول من عرف للمرأة قيمتها، وأول حضارة أظهرت عبقريتها.!

هل تقبل المرأة ضرتها؟

كان أحد شيوخي الذين أعتز بهم، ولهم باع كبير في العلم والدعوة، قد قص علي بعضًا من حياته الخاصة، وروى لي: لماذا تزوج بامرأة ثانية، وأدخل على زوجته ضرة وشريكة أخرى؟ وكان للشيخ أسبابه الوجيهة، أو التي كان يراها هو وجيهة، لكني سألته مندهشًا كيف كان يدير العلاقة بين الزوجتين؟ وكيف كانت تستقر إحداهما بجانب الأخرى؟ وكيف جمعهما في شقة واحدة؟ وهل فعلا كانت كلتاهما تقبل صاحبتها أو تأنس بها كما نسمع من سير السابقين، بأنهما كانتا تعيشان تحت سقف بيت واحد وفي ظل رجل واحد كأنهما أختين؟!

فقال شيخي: دعك من هذا الوهم والهراء فالمرأة هي المرأة، بغيرتها وثورتها وكمدها وغيظها، لا تقبل ضرتها حتى ولو كانت مريم ابنة عمران.! والمرأة التي تدعي هذه المثالية، إنما هي كاذبة، أو بمعنى آخر تخدع نفسها!

والمثل يقول: الضرة مرة ولو كانت درة.

وتذكرت هنا قصة تلك المرأة التي قضت مع زوجها دهرًا لم تنجب، ثم عرضت على زوجها أن يتزوج حتى يتاح له الإنجاب، وأنها هي من ستزوجه وتخطب له وتنتقي له أم أبنائه، فاختارتها وصادقتها وتوددت لها، فلما صارت تحت زوجها، تنمرت لها وقلبت لها عن وجهها القبيح، وعاملتها بأقسى ما تعامل به ضرة ضرتها، لقد تيقظت فيها غرائز الغيرة، التي كانت خاملة هامدة أيام الخطبة.

وقد تتألم المرأة من فكرة الضرة، ولكنها تظل دومًا تتهم الرجل بدناءته وطمعه وزوغان عينه، لكن الألم يكون أكثر غورًا وأبعد أثرًا، لو وجدت المرأة نفسها سببًا مباشرًا في وجود هذه الضرة، كأنت تكون عقيما أو كبيرة السن أو تنجب البنات.! ثم يبلغ القهر مداه لو كفر الرجل بهذه العشرة الطويلة، والحب المثالي، فيطلقها ويبقي على الضرة الجديدة.. ساعتها تنقم المرأة على زوجها نقمة عظيمة، بل ربما تنقم على جنس الرجال جميعًا، أو تصاب بعقدة تجعلها نافرة من الحياة والأحياء، جزاء لأنوثتها المجروحة.

وهو ما حدث مع (ثريا أصفنديارى) امبراطورة إيران وزوجة الشاه (محمد رضا بهلوي) وملكة عرش الطاووس، كان الشاه وزوجته في قمة سعادتهما، وكان جمالها رائعًا وتتصدر صورها أغلفة المجلات العالمية، كنموذج للجمال الشرقي، وكان زوجها الشاه يحبها وسعيد برفقتها، ولكن السعادة لم تكتمل، فثريا لم تكن تنجب ولم تستطع أن تأتي بوليد يرث العرش، ويحمل اسم والده ويمتد به وجود الأسرة البهلوية.

وجاءت السياسة لتفرض إرادتها على الزوجين السعيدين، فصارح الشاة حبيبته، أنه لابد له أن يتزوج من أخرى لينجب منها الولد، حتى يحافظ على العرش، وتبكي الزوجة الجميلة وترفض ذلك، ولكنها في النهاية تقبل بالأمر الواقع والضرورة الملحة، ولكن بشروط مجحفة تعيق مسيرة هذا الزواج، وهي ألا يكون لضرتها الجديدة أي دور في حياة زوجها سوى مهمة إنجاب الطفل، وألا يكون لها أي وضع

في بروتوكول الدولة، فلا تظهر مع زوجها في مناسبة ولا احتفال ولا أي مكان، وأن يطلقها بعد إنجاب الطفل، وأن يعهد إليها هي بتربية هذا الطفل بعد ولادته، ليصبح صالحا للجلوس على العرش في المستقبل، ولا شك أنه يمكن للشاه أن يوافق على كل ما تمليه زوجته، لكن أي فتاة تنتسب إلى أسرة كريمة تقبل بمثل هذا الإفناء؟

ووجد الشاه نفسه مضطرًا للتضحية بحبه في سبيل عرشه، فلم يكن مناص من طلاق ثريا، طلقها وهو يبكي وينفطر قلبه على فراقها، ولكن الجميع أمام هذه الدموع، كانوا يشيدون بحكمته وعقله، حينما ضحى بأعز ما لديه في سبيل العرش والوطن.! وتزوج الشاه من (فرح ديبا) التي أنجبت له وريثه المأمول، من أسرة عريقة، حققت له طموحه المنشود، ولكن كل شيء ذهب في عام 79، حينما قامت شرائط الكاسيت التي أرسلها الخوميني من منفاه، بزلزال عنيف وثورة عاتية، أطاحت بأحلام الشاه وعرشه.

ليت زوجي كهذا!

الرجل في حياة المرأة ليس شرًا، وحينما يكون الرجل ذا نفس كريمة وعقل متفتح، وخلق زاهر، فإنه يكون خيرا على المرأة، وقد مر بنا كيف يحقد الرجال على عبقرية نسائهم، ولكن الزوجة لو كان من نصيبها هذا الرجل العاقل، لاستطاع أن يؤجج فيها كثيرًا من سمات الخبر والنهوض.

حينما يوجد الحب والتفاهم بين الرجل وزوجه، تكون الحياة هانئة سعيدة، وحينما يبلغ هذا الحب مبلغه، بحيث لا يستطيع أحدهما أن يتحمل الحياة بدون الآخر، فإنها صورة نادرة من الوفاء، إذا قرأنا عنها أو لمسناها في واقعنا، وقفنا أمامها مشدوهين خاشعين وجلين مكبِرين.!

تماما كما نجده في قصة هذا الرجل مع زوجته الروائية الإنجليزية الشهيرة (كاترين كوكسن) حينما مات بعدها بـ 18 يوما فقط، في عام (1998م).. حزنًا وكمدًا على فراقها، حيث شعر بفقد الحب والإخلاص وأن الحياة صارت لا معنى لها.. وعرف الناس وقتها أنه مات منكسر القلب مفجوع النفس، على المرأة التي كانت كل حياته.

قابل الرجل زوجته الأديبة في الثلاثينات، وكان يعمل وقتها مدرسًا للرياضيات، وساقته الأقدار للسكن في بيتها حينما كان يبحث عن سكن مفروش، وكانت وقتها تدرس الأدب، وتآلفا وأصبحا صديقين لا يتفارقان، ثم تزوجا في عام (1940م) وغمر الحب حياتهما، ورغم هذه الحياة المليئة بالحب والتقدير، إلا أنها لم تخل من منغصات وآلام ساقها إليهما القدر، فقد فقدت الزوجة الشابة ثلاثة أطفال رضع، ولم يستطيعوا البقاء في الحياة بسبب مرض الدم الوراثي الذي نقلوه عنها.. وأصيب الزوجان باليأس بعد رحيل هؤلاء الأطفال، فلم يحاولا مرة رابعة، ولم يكن لهذا الحرمان الشديد من الأبناء، ليمر سهلا على هذه الزوجة الطيبة، فقد أصيبت بنوبات اكتئاب عنيفة، لازمتها (15) عامًا كاملة.

وهنا أمام هذا الاضطراب، حاول الزوج المحب الوفي أن يبحث عن مخرج لهذه الزوجة مما أصابها وأفسد حياتها وأذهب منها أسباب البهجة، فظل يبحث عن الطريقة التي تخرجها من هذا الكابوس المهلك، وكان يعلم عنها حبها للكتابة، فشجعها على الكتابة القصصية، وأكد لها بين الحين والحين، أنها موهوبة وأديبة، وأخذ يحثها ويشجعها أن تنشر قصصها وتراسل الصحف، وأمام هذا الشحن والتشجيع آمنت الزوجة بموهبتها، ووثقت في قلمها، وفكت من على روحها بعض قيود الاكتئاب، وبدأت تكتب وتراسل الصحف والناشرين، حتى ذاع اسمها ونشرت لها كل الصحف، حتى صارت فيما بعد من أشهر الروائيين الانجليز، والتي توزع كتبها بملايين النسخ، وأقبلت عليها السينما التي جسدت 13 عملا من أعمالها الروائية إلى أفلام ومسلسلات، ولم تحقق الشهرة الكبيرة فقط، وإنما حققت معها ثروة هائلة.

لقد عاشت مع هذا الزوج العظيم 48 عاما.. وأمام هذا النجاح الأسطوري قال النقاد: إنه لولا تشجيع هذا الزوج العطوف على احتراف الكتابة، لما نجت من الاكتئاب، وربما أصيبت انهيار عصبي أو أقدمت على الانتحار.. وحاول بعض الأصدقاء المقربين أن يصف هذا الزوج، ويف كان سندًا عظيمًا مثاليًا لزوجه فقال: لقد وقف إلى جوارها يمرضها ويرعاها خلال محنة الاكتئاب، ثم في خمس أزمات قلبية شديدة، أصيبت بها بعد ذلك خلال رحلة العمر، وأجريت لها جراحة خطيرة، وفي كل هذه الازمات كان هو اليد الحانية التي تربت على كتفها، ويبتسم لها ويشجعها على احتمال الأحزان

والآلام، بل كان الحصن الذي احتمت به من عوادي الزمن ومخاوفه وأخطاره.. والشمعة المضيئة في العتمة المظلمة. وظلا معا 48 عاما ورحل بعدها بـ 18 يومًا.

قصة عظيمة في وفاء الزوج لزوجته، ولعل النساء في قراءتهن لهذه القصة يدركن فضل الرجل وقيمته في حياتهن لو أحببنه، وقدمن له ما يحتاجه من عطف ووفاء وإخلاص.!

ولكني أرى الرجال أحوج إلى قراءتها من النساء، حتى يتعلمن معنى الوفاء ومعنى الحب، ويدركن ما في المرأة من معجزة كبرى لو قام زوجها بتشجيعها وتحفيزها ودعمها وعدم السخرية منها، كما هو حال الكثيرين الذين لا يفهمون ولا يعون.

أما عن القراءة وارتباطها بالاكتئاب فقد قرأت من فترة لأحد الأطباء قوله: "بحكم إشرافي على العلاج السلوكي والنفسي لعدد من الحالات المرضية النفسية التي ارتمت في متاهات «الاكتئاب» وأقبية القلق ونتوءات التوتر، كنت مصراً أن أضع في جدول الاستشارات ممارسة القراءة والكتابة بدقة وانتقاء وتفاعل ووصال بين الحواس الذهنية والإحساس الفكري والنفسي مما يكفل الاندماج فيها ذاتياً وتحويلها إلى سلوك عيش وإلى «فضفضة» ذات وطريقة تطوير، وكانت النتائج مذهلة في تشرّب السكينة والطمأنينة والمضي قدماً في دروب بيضاء، انعتقت من سوءات البشر ومن تدخلات الغير، فكانت الحياة مع الأقلام والأوراق والكتب، ترابطاً روحياً فريداً ينعش النفس، ويسر الروح، ويفرح الفؤاد."

لا تفضحي زوجك

قد يشاع عن امرئ ما أمر يسوؤه ويخزيه، ويمثل له فضيحة تؤلمه، ولا يطيق أن يعرفها الناس عنه.. بل لعل فضح الأخرين وتجريسهم وكشف معايبهم وإظهار أسرارهم على الناس، هو أقسى عقاب ينالونه منا ونُهينهم به، إن أردنا أن ننتقم منهم ونذلهم.

ومن هنا كانت نعمة الستر من أعظم النعم والسجايا والأخلاق والخصال والفضائل، لأن المقابل لها خصلة الفضح، وهي أبشع الخصال ومن أسوأ وأسفل الصفات التي يتصف بها الإنسان.

وديننا العظيم قد جعل التجرد منها من أنجح الطرق التي تصل بالمرء إلى بر الامان والنجاة من سوء المنقلب في الأخرة، وبين يدي الديان يوم الحساب العظيم، فقال ﷺ: من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والاخرة!

والذين يفضحون الناس ويعرونهم ويكشفون سترهم ومساوئهم، هم قوم لا رحمة لهم ولا خلق ولا مروءة، وهم أبعد الناس عن خلق العفو والصفح والستر، وهم الذين يغفلون أن كل إنسان له عيوبه وسوآته وغيبه المليء بالأسرار والأقذار والمعاصي والهنات المخجلة.! بل هم الذين يدركون وهم يفضحون غيرهم، أنهم يرتكبون في حياتهم من المصائب والبلايا أسوأ وأقذر وأقبح مما ارتكب من قاموا بفضحه وكشف سوأته.!

ولكنهم قوم لا ينتهون ولا يكفون، لأنهم لا يخشعون ويتقون.

جاء في الأثر: (من تتبع عورة امرئ مسلم، تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيت)[1]

ولعل أسوأ تلك الفضائح، تلك التي تصيب الرجل من زوجته، حينما يحدث بينهما شقاق أو فراق أو طلاق، فتشعر المرأة بغبن وظلم أو غيظ، فتنسى دينها ومروءتها وخلقها، وتندفع كالمجنونة لتفضح زوجها أو طليقها، وتكشف أسراره وتظهر معايبه، وتملي على الدنيا كلها مرذول صفاته وطباعه وخبائث أفعاله ومواقفه! تفعل هذا وهي التي كانت سره وستره وزوجه التي يفضي إليها بما في نفسه وطباعه، آمنا مطمئنا موقنا أنها الملاذ والبئر الذي يحفظه ويستره، لكن الأيام تعلمه من أين جاءت الطعنة الغادرة، لقد أصابته في ظهره ومن أقرب الناس اليه!

أيتها الزوجة سُبيه أو العنيه أو اشتميه أو اضربيه أو حتى ابصقي في وجهه لكن لا تفضحيه، لا تظهري عيبه ولا تكشفي ستره، ولا تظني أن اللذة الحقيقة حين ترينه ينهدم في أعين الناس الذين كانوا يجلونه ويحترمونه ويقدرونه. لأنك ابتداء تفضحين نفسك وتكشفي عنها ستر الخلق لتظهر في الحقيقة كم هي حقيرة سفيهة.

[1] - أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه

إن زوجة تولستوي لم تطق تصرفات زوجها وتوزيع ثروته على الفلاحين والعمال، وضجت من تصرفاته وشكته للقيصر، وبعد موته فضحته في مذكراتها التي بلغت مئات الصفحات وكتبت عنه كل شيء سيء.

وكذلك زوجة د.هـ. لورانس عاشت بعده 20 عامًا لتكتب أتفه ما في حياة الكاتب العظيم، وصورته صورة على غير حقيقته التي كان عليها، وروت للناس كيف كان يُصاب بجميع الأمراض قبل أن يكتب، وكيف يخرج اللعاب من فمه؟ وكيف يصاب بالإمساك ويصرخ.!

وكذلك زوج بيكاسو حين انفصلت عنه: أنه كان يجافيها أحيانًا بأن يطفئ عقب سيجارة مشتعلة في جسدها، أو يلقي به في وجهها، وكان كتابها فضيحة كبيرة في باريس والعالم كله.. لقد صورته بأنه رجل شهوة، يتملكه الشذوذ الجنسي فهو يريدها عارية، تدخل المطبخ عارية أمام ولدهما وابنتهما الصغيرين!

ولكن ليس معنى هذا أن ننكر على المرأة الضعيفة المسكينة التي يهينها الرجل ويظلمها ويدمر حياتها ونوصيها بالسكوت أمام زوج يستحق الشنق والسلخ؟!

إننا نشجعها على فضحه، وننصرها عليه، ونؤازرها في غضبها، حتى تنال منه وتثأر لكرامتها وتشفي جراحها وآلامها، والله تعالى يقول: (لَّا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ)[1]

أعرف رجلا حقيرًا خسيسًا، حدث بينه وبين صهره وحماه بعض الخلافات، فلم يجد السافل وسيلة ينتقم بها منه أو يكيد له بها، إلا أسلوب الفضح والافتراء عليه بالبهتان، فكان يفضحه ويكشف أسراره التي عرفها من زوجته، وكان يطوف على كل معارفه وأقربائه وأصدقائه وكل جيرانه ليخبرهم ما ألصقه به من أقبح وأسوأ الصفات والطباع والفعال، التي كان الرجل منها بريئا براءة شافية.

وكان كلما أحب أن ينتقم من هذا الصهر، كان يسلط زوجته ويقول لها: اذهبي إلى بيت أبيك والطمي واصرخي أمام الناس وافضحيه لأنه رجل محترم، ولا يكسر الرجل المحترم إلا الفضيحة أمام الناس وتحطيم سمعته التي ستكون على كل لسان.

وبالفعل كانت السافلة الغبية، تفعل ما يوصيها به الخبيث اللعين والمنحط الحقير.!

[1] - سورة النساء: 148

ومن المنصف هنا أن نقول: إن أسلوب الفضح بين الزوج وزوجه، أحيانًا يكون من باب النبل والاتزان إذا ما قورن بغيره من الفعال وردة المواقف، نعم لا تتعجب حينما أقول ذلك، فقد علمت ورأيت في كثير من المواقف والحوادث الخلافية بين بعضهم وبعضهم، إقدام الرجل على نشر لقطات وصور شبه عارية أو عارية لزوجته على الفيس بوك، صور من تلك التي لا تكون إلا في حجرة النوم، ولا تكون إلا من تلك التي لا ترتديها المرأة إلا لزوجها، رغبة في فضحها وتأديبها، وهذا الصنف من الرجال، لا يستحق أن ينسب إلى عالم الرجال، ويجب أن يتجمع الناس من فورهم فيقبضوا عليه ويضرموا فيه النار عقابًا على جرمه، ولو كان الأمر بيدي لصلبت جسده اللعين في الميدان، ليكون عبرة لكل من يحاول أن يهدم المروءة، ويخدش العفة، ويشيع الفاحشة، ويطعن الرجولة في محاسنها.

المرأة والنبلاء

رؤى أن الأصمعي حين دخل البصرة وتحديدًا في بادية بني سعد، وكان خالد بن عبد الله القسري واليًا عليها، وتميز هذا الرجل بالحكمة والدهاء.

وجد الأصمعي الأهالي متعلقين بشاب حسن الثياب، جميل الوجه، هادئ الطبع، ومتوجهين به إلى خالد ليقطع يده؛ لأنه ضبط متلبسًا بالسرقة من أحد البيوت، ولما نظر إليه خالد قال في نفسه: ما هذه هيئة لص، فأمرهم أن يخلو عنه ويعودوا من حيث جاءوا..

أخذ الفتى على انفراد وسأله: كيف يكون لصا وهو بهذه الهيئة، وهذا الحسن، وذاك الحياء والجمال والبهاء؟!

فأكد له الفتى أنه لص، حمله الشره في الدنيا على السرقة، وطلب من الوالي أن يسرع في قطع يده..

حاول خالد أن يخرج منه باعتراف حقيقي بعيدًا عن قصة السرقة التي لم تدخل عقله، لكن الفتى أصر على أنه سارق، ويجب أن يقام عليه الحد!

أمر خالد بمناد ينادي في أهل البصرة ليجتمعوا ويشاهدوا عقوبة اللص الجميل!

ولما اجتمع القوم عن بكرة أبيهم، حاول خالد محاولة أخيرة أن يثني الشاب عن الاعتراف، آمرًا إياه أن يقول الحقيقة، فلم ينجح.. ولما هم الجلاد ليقطع يده، ظهرت فتاة جميلة ورمت نفسها عليه، ثم

أسفرت عن وجه كأنه البدر، فأخذها خالد وسألها عن القصة، فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهي كذلك، وأنه أراد زيارتها وأن يعلمها بمكانه، فرمى بحجر إلى الدار، فسمع أبوها وإخوتها صوت الحجر، فصعدوا إليه، فلما أحس بهم، جمع قماش البيت كله وجعله صرة، فأخذوه، وقالوا: هذا سارق، وأتوا به إليك، فاعترف بالسرقة، وأصر على ذلك حتى لا يفضحني بين إخوتي، وهان عليه قطع يده لكي يستر علي، ولا يفضحني، كل ذلك، لغزارة مروءته وكرم نفسه!

"ولعلك لا تعي قول النبي ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) حق الوعي إلا بالتوسع في قراءة أحوال العرب في الجاهلية، فهم وإن كانوا أمة ضئيلة العلم، ضعيفة الفلسفة والفنون، معدومة البنيان والتشييد، مقارنة بغيرها من الأمم في ذلك الوقت إلا أنها امتلكت في الغالب طباعا نادرة، وفطرة سوية، ومروءة عالية، وشهامة قل نظيرها!

ولدوا في عمق الصحراء، في بيئة قاحلة، لم تعرف الأنهار ولا النباتات الخضراء فترق قلوبهم ، وتضطرب مشاعرهم ، ومع هذا كانوا أرق الناس قلوبا ، وأكثرهم شجاعة ، وأصدقهم في القول ، وأصبرهم على الفعل ، يموت الواحد منهم من العشق ولا تمس يده جسد من يحبها ، ويقدم روحه رخيصة في سبيل الدفاع عن أهله ، ولا يتردد في قتال من أراد النيل من جارته فضلا عن أمه وزوجته وابنته !

حتى وهو يعتمد السلب والنهب والإغارة في توفير قوته لم يعرف عنه كذبا، ولا خيانة إلا في مواضع قليلة، يراها الناظر تناقضا فجا، ويراها المتأمل إيمانا ناقصا، لو اكتمل لزين الدنيا كما تزين النجوم السماء، وقد حصل ورأينا كيف كان المجتمع الأول في دولة الإسلام !"[1]

وهذه القصة تشبه في نبلها تفاصيل الفيلم الهندي زارا وفير الذي انتج عام ٢٠٠٤م بطولة شاروخان وبيرتا زينتي، كان فيلما مؤثرا ورغم أنه فيلم رومانسي، إلا أنه يحمل بعض القيم المهمة، ويغصب عينيك في بعض مشاهده أن تزرف بعض الدموع.

[1] - شذرات الصباح للكاتب سيد حمدي

قصة الفيلم تقوم حول شاب قبضت عليه السلطات الباكستانية واتهمته بالتجسس لصالح الهند، وفي التحقيق رفض أن يدلي بأي شيء عن تفاصيل وجوده في باكستان، حفاظًا على شرف الفتاة التي أحبها أن يمسها أحدهم بسوء، أو أن تأتي سيرتها بما يفسد سمعتها أو تلوكها بعض الألسنة.

قبل الفتى العاشق أن يسجن ويحكم عليه بالسجن المؤبد وتهمة التجسس، فداء لمعشوقته التي أحبها من كل قلبه.

الموقف كان شهما وماليا وإنسانيا من الدرجة الأولى، ويعلم من يشاهد القصة، روعة هذا السامي الذي لا يرقى إليه ولا يجسده، إلا شاب تجرع المروءة وتربى على المثالية والأخلاق العالية.

وقرأت مؤخرًا قصة مشابهة لا أعلم مدى صحتها، لزاهد عارف من زهاد سلفنا الصالح، وكان أعمق في موقفه وتصرفه وأحداثه وأخلاقه ومثاليته وروعته ومروءته.

فحينما تأخر المطر عن المسلمين، هرع الناس لصلاة الاستسقاء في المسجد الحرام، وكان منهم الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك، الذي لمح عبدا أسودًا يدعوا الله في ركن من المسجد: يإ إلهي إني ما دعوتك يوماً لنفسي إلا استجبت لي فضلاً منك وكرماً، وها أنذا أدعوك اليوم لعبادك هؤلاء من أمة نبيك وحبيبك، إلهي ياحليماً ذا أناة، إن كنت تحبني كما أحبك فأسقهم الساعة.. الساعة.!

ولم ينته الغلام حتى انهمرت السماء عن مطر شديد، ولما أحس الغلام بابن المبارك انتفض مذعوراً، وانطلق يعدو مسرعاً وتبعه ابن المبارك، حتي علم أنه غلام لتاجر كبير، وأن اسمه ميمون، فاشتراه من التاجر، الذي أخبره أنه غلام صالح لا يصلي إلا في الكعبة، ولكنه ضعيف لا يقدر علي شيء، ورغم صلاحه، إلا أنه عبد شهواني فيم يتعلق بالنساء، ولا يؤتمن على الحرمات، فدهش ابن المبارك لهذا الكلام، ولكنه أصر على شرائه، وفرح ميمون بصحبة ابن المبارك، وفي الطريق سأله عن شرائه له وهو عبد ضعيف لا يقدر على الخدمة، فلما أخبره بما عرف من أمره جزع وحزن، ولما سأله ابن المبارك عن مراودته الجارية السوداء أجاب ميمون: كانت محنتي هذه هي مفتاح الصلة بيني وبين الله عز وجل، فقد ذلل لي بعدها كل صعب، وأنكشف لي بعدها كل حجاب، فقد كنت أنا وميمونة وحدنا في حجرتها في نصف الليل والجميع نيام، وراودتني عن نفسها فقلت لها: إنني أخشى الحي الذي لا ينام، استري نفسك يا زيتونة، وأعلمي أني لن آتي الحرام أبدًا، ولو قطعتني قطعًا، فهددتني

وأقسمت إن لم أستجب لها لتقولن لسيدها إنني قد راودتها عن نفسها، فقلت لها: افعلي ما شئت، ففعلت فأندهش ابن المبارك وسأله: ولكن لماذا اعترفت على نفسك ولم تكذب الجارية؟ فرد ميمون: أردت أن أصون سمعتها وعرضها، عسى أن تهتدي في النهاية إلى طريق الله، فسأله ابن المبارك: أتصون سمعتها وتلوث سمعتك؟ فأجابه ميمون: أردت بذلك وجه الله تعالى الستار جل وعلا، فكان ذلك مفتاح القرب منه والوصول إليه.

وبين خبر ميمون وخبر الإصمعي فرق كبير، فهناك المرأة التي أسرعت لتبرئة الشاب قبل أن يقام عليه الحد ويمسه السوء، وبين زيتونة التي لفقت التهمة بميمون، واتهمته بمراوغتها عن نفسها، حقا ليست كل النساء على وتيرة واحدة، ففيهن الحائرة وفيهن المحيرة.

في عشق النساء

ليس الرجل القوي ذلك الذي ترينه مفتول العضلات، شديد البنية، عظيم الجسد، عالي الصوت ثقيل الخطو، ملفوف الشارب ثاقب النظر، ليست القوة أبدًا في هذه المظاهر المادية الخارجية المحسوسة، وإنما القوة الحقيقية تكمن في دنيا القلب، فكم من طويل عريض تراه خائفًا مذعورًا، وكم من قوي ضخم الجسد تراه جبانا خائرًا، حينما يجد الجد ويدعوه النداء وقت المحن.!

وإذا كانت القوة في عالم القلب ومقياسها الحقيقي موقوف عليه، فإن أقوى الرجال حقًا هو ذلك الذي يستطيع أن يقهر في قلبه نداء العشق والهوى والحب، والبطل المصارع قد يستطيع هدم الجبال وتحطيم الجدران ولي الحديد، لكنه أمام معشوقته تنهد قوه وتخور شدته.

كثيرٌ ما تعرض لك أيها الرجل كل يوم فتيات جميلات، وتقابلك نساء فاتنات، تحدثك إحداهن فتمتعك بحديثها، تطل عليك فتبهجك بروحها، وترمقها من بعيد فتدهشك بخفة ظلها، ما أن تراها كحيلة العين، حتى يخر لها فؤادك هائمًا في هواها، وما أن ترى قوامها الممشوق حتى تذوب شوقًا في محياها.. يخرج من عينيك مالا يستطيع لسانك أن ينطق به، ويخرج من نظراتك ما يعبر عما يستقر في أعماق قلبك.

انظر لهذا الذي كان يصف محبوبته حينما يراها قادمة إليه، لقد كان يقول: كنت أراها قادمة من بعيد.. كأنها علم يخفق.

إن هوى النساء، هو المصاب الذي يضعف أمامه كل الرجال، وحدهم هم أولئك الأقوياء الذين لا يخترمهم سحر المرأة، ربما يراها جميلة، لكنها لا يمكن أبدًا أن تقهر فؤاده، لقد تأملت الشيخ محمد الغزالي رحمه الله وهو يصف حسن البنا في قوله: لقد أفلت الرجل من غوائل المرأة.. كما أتأمل وصف الله تعالى لنبيه يحيى عليه السلام بقوله: (وسيدا وحصورًا) أي الذي لا أرب له في الشهوات، وقيل: هو الذي لا حاجة له في النساء.

يقول الشيخ علي الطنطاوي:

"إن امرأة واحدة عارية تهدم في ساعة واحدة ما يبنيه الأستاذ المرشد المصلح الهادي في عشرين سنة"

حقا إنها غائلة، لكن الكبار الأقوياء وحدهم من يحتفظون بكيانهم ومقامهم وهيبتهم أن تنهار أمام سحر المرأة الفتان، هناك شهوات كثيرة يمكن لها أن تصرع الإنسان، ويسيل لها لعابه صاغرًا ذليلا، كشهوة المال، وشهوة الملك، وشهوة الجاه والشهرة، لكن شهوة المرأة، أو بتعبير أرقى عشق المرأة، هي الشهوة الوحيدة التي تكسر أهيب الرجال وأكثرهم تحصنًا.

ربما يدعي بعضهم أنه عدو المرأة، لكنك لو فتشت دواخله، لوجدت حقيقة كرهه لها من خوفه أن تقهره بسحرها وفتنتها، والدين العظيم لفتنا إلى فتنة النساء وحذرنا منها، ودعانا أن نتحصن من غرورها، فقال نبينا العظيم ﷺ: (اتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء)[1] وقال: (ما تركت بعدي فتنةً أضر على الرجال من النساء)[2] والحديثُ يشير إلى أن الفتنة بالنساء، أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهدُ له قوله تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاس حب الشهوَات مِنَ النسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِن الذهب وَالْفضة والخيلِ الْمسومَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)[3]

[1] - أخرجه مسلم.
[2] - متفق عليه
[3] - آل عمران:14

انظر للآية المباركة، لقد بدأت بالنساء قبل كل شيء، وذلك لفاعليتها وخطورتها عن بقية الشهوات.!
كما جاء فيمن سبقنا قصة العابد برصيص، الذي هوت به المرأة من أبراج عبوديته، وهدمت ما شيده من عمر مديد في طاعة الله.!

ما أحوج المرء دومًا أن يقف مع نفسه ويصارحها، ويحاول أن يداويها من هذا السحر الأخاذ، ويقنعها أنه وهم وغرور، فربما تكون هذه التي هي بادية لك كالقمر، شر مستطر، وفي خلقها وصحبتها بلاء كبير، ربما تكون سببًا في هلاكك وشقائك، فتسوقك لتلعن هذا اليوم الذي عرفتها فيه، واغتررت بها وخدعت بجميل ملامحها التي تخفي خلفها سواد الخلق والضمير.

نعم ربما تكون روحها جميلة، وكلامها أنيقًا وملامحها لا تجزم إلا بطهارة سامية.. لكنك أعمى عن الغيب، لا تعرف شيئا مما تخفيه المظاهر.

ويروي أحد الشيوخ أن شابًّا سافر إلى بانكوك، وتعرَّف هناك على فتاة بغيٍّ، فشغف قلبه بها، وأصبح لا يحتمل فراقها، وارتكب معها من المعاصي والمحرَّمات ما تقشعر من هوله قلوب المؤمنين، وما زال على تلك الحال من التعلُّق بها، حتى صار لا يطيق أن يعيش يومًا بدونها، وفي أحد الأيام تأخرت عن القدوم إليه، فطار صوابه، وأصابه الهمُّ والضيق، وكاد يفقد عقله، فلما قدمت إليه زال حزنه، وانفرج همه، واستقبلها استقبالاً خططت له الشياطين طويلاً، فلم يجد ذلك المخذول المهان شيئًا يعبِّر به لها عن مدى فرحتِه بقدومِها، سوى أن يسجدَ لها من دون الله – تعالى، نعم، سَجَد لها، ولكنها كانت السجدة الأخيرة، فما قام منها إلا إلى قبره، نعوذ بالله من الخِذلان"

وهناك قصة أخرى ذكتها كتب التراث لرجل فقد عقله حينما تعلق قلبه بامرأة أحبها وأرخى لهذا الحب في قلبه حتى تمكن فيه واشتد وعلبه على عقله فصار كالمجنون المجذوب لايدري في الدنيا بغير ما يمزقه من ألم فراقها ، لقد كان الرجل واقفًا بإزاء باب داره، وكان يشبه باب حمَّام للنساء يُسَمَّى "حمَّام منجاب"، فمرَّت به جارية لها منظر، وهي تقول: "أين الطريق إلى حمَّام منجاب"، فقال لها: "هذا حمَّام منجاب"، وأشار إلى داره، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسَها معه في داره وليس بحمَّام، علمت أنه خدعها، أظهرت له البِشْر والفرح باجتماعِها معه على تلك الخلوة، وفي تلك الدار، وقالت له: يصلح ليكون معنا ما نطيِّب به عيشنا، وتقرُّ به أعيننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وبكل

ما تشتهين، فخرج وتركها في الدار ولم يقفلها، وتركها محلولة على حالها ومضى، فأخذ ما يصلح لهما، ورجع ودخل الدار، فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثرًا، فهام الرجل بها، وأكثر الذكر لها، والجزع عليها، وجعل يمشي في الشوارع والأزقة، وهو يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تَعِبت ... أين الطريقُ إلى حمَّام منجاب

وروي أنه بعد أشهر مر فِي بعض الْأَزِقَّة وَهُوَ ينشد هَذَا الْبَيْت، وَإِذا بِالجَارِيَة تجاوبه من طاق وَهِي تَقول:

هلا جعلت لها إذ ظعنت بها ... حرزًا على الدار أو قفلا على الباب!
إن ينفد الرزق فالرزاق يخلفه ... والعرض إن نفد فمن أين ينجاب!

فَزَاد هيمانه، وَاشْتَدَّ هيجانه، وَلم يزل كَذَلِك حَتَّى كَانَ من أمره أنه لما نزل بِهِ الْمَوْت وجاءت ساعة احتضاره، فَقيل لَهُ قل: "لَا إِلَه إِلَّا الله".. فلا يستطيع، إنما جعل يَقُول:

أَيْن الطَّرِيقُ إِلَى حمَّام منْجَاب؟

لقد وقع الرافعي رحمه الله يومًا في الهوى والغرام، ولم يجد له طاقة على المقاومة، واحتال في الخلاص فما أجدته الحيلة إلا همًا على هم، وكان حبه أقوى منه، لكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه، فقال لنفسه: ما أنا وهذا الحديث الذي يعترض طريقي ويغلبني على إرادتي؟

إن في بيتي امرأة أحبها وتحبني، وإن لها علي حقًا ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لي، ماذا يكون من أمري وأمرها غدًا أمام الله حين يطلب كل ذي حق حقه؟ أأقول لها: نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبي الذي لا أملك لمن لا تملك؟ ويلي إنها الخيانة والاثم والعار!

وإذا كان للرافعي دين أسعفه حينما كان أقوى من حبه، فماذا يفعل ضعاف الدين؟

ألا ليت الفتيات يتقين الله، فلا يبرزن من حسنهن وزينتهن ما يزلزل قلوب الرجال، فينهار الضعفاء ويمتحن الأقوياء، وبدلاً من أن تنشغل العقول والمهج والأرواح بقضايا الأمة الكبرى، تذوب مدمنة في عناصر الفناء.

أمومة جاهلة

الأمهات في زماننا الحاضر شيء مختلف عما مضى، فبعضهن اليوم لا يهتممن بتربية أبنائهن ولا يهمهن أن يتفوقوا في مستقبلهم، بقدر ما تهتم بشيء آخر يوائم صراعها النفسي الكئيب؛ ومواردها الذي تغلي مراجله في صدرها، وهو أن يكون هؤلاء الأبناء أنجح وأفضل وأكثر تفوقاً من أبناء أقاربها.

وهذه الروح الغبية الغريبة التي لا هدف لها إلا إرضاء غرور المرأة وكبرها، قد جلبت خسارة كبيرة لكثير من العائلات ولكثير من القيم، بل لكثير من المناطق والقرى.. ولعلها توجد أكثر ما توجد في الأرياف، نظرا لتداخل العائلات واندماج العلاقات الاجتماعية، بشكل أكبر منها في المدينة، وقديمًا كنا نسمع عن عائلات معظم أفرادهن في الجيش أو الشرطة، أو في تجارة الذهب، أو يمتهنون مهنة معينة، فيكثرون من أتباعهم فيها ليحتكروا نشاطها وعائدها لهم.. فقد كان كل أفراد العائلة يبر بعضهم بعضا، ويحرص بعضهم على خير بعض، ويريد أحدهم أن يتفوق قريبه أو ابن عمه في المجال الذي يمتهنه، حتى يكون وريثه فيه فيعود الخير على الجميع.. كان يرى أن أي عز أو مكانة أو تقدم لأي فرد من أفراد العائلة.. إنما هو فخر للجميع وتقدم للجميع وازدهار للجميع، ولو نظرنا عالمياً لوجدنا سيطرة بعض العائلات على مقدرات السياسة والاقتصاد في البلدان التي توجد فيها، وتقوم مجلة فوربس بنشر قائمة سنوية لأغنياء العالم، ومما نلاحظه في هذه القائمة، هو وجود أسماء ثابتة لعائلات كبيرة، فهناك عائلات لها شهرة عالية، ولها كذلك تأثير ضخم على الاقتصاد والسياسة للبلد التي تتواجد فيها، ومن هذه العائلات مثلاً عائلة والتون، أغنى عائلات أمريكا التي تساند الحزب الجمهوري، وعائلة بوش التي ترعى مصالح شركات النفط والأسلحة، وفي أمريكا سبعة من 12 رجلاً تنتهي أسماؤهم بوالتون وكوتش وويلسون، وكذلك تجد عائلة روتشيلد التي سيطرت على مقدرات السياسة في أوروبا والعالم، ومؤسس هذه العائلة هو المصرفي الألماني (آمشل ماير) الذي درب أبناءه الخمسة على فنون المال والتمويل، فأرسل ابنه ناثان إلى انجلترا ليسيطر على مقدراتها الاقتصادية، وسولومون إلى النمسا وشارل إلى ألمانيا، وصار هؤلاء الخمسة سادة الذهب وأسباب الحروب والثورات في أوروبا، ومن بعدهم أحفادهم وأعوانهم في تلك السيادة، التي استمرت مع الزمن،

ويعدون مثالاً صارخاً في سيطرة رأس المال على السلطة الحاكمة، كما كان لهؤلاء دور بارز وكبير في الحصول على وعد بلفور، حين قدموا أموالاً هائلة لشراء أرض العرب في فلسطين.

وفي قرية مجاورة لقريتنا في ريف المنوفية، كانت هناك عائلة بها عدد كبير من ضباط الشرطة، الذين لم يكتفوا بزج الرجال والشباب، حتى افسحوا المجال والميدان لفتياتهم فصار منهم ضابطات، وهو ما كان غريبًا جديدًا في محيطنا الريفي.

وإذا نظرنا وتفحصنا، لوجدنا أن من أسباب غياب هذه الفضيلة، وهذه النزعة التكافلية الحميدة في كثير من الحالات، إنما يرجع أول ما يرجع إلى المرأة التي سيطرت عليها الغيرة الحمقاء، فإنها تنبت أشواكاً في النفوس تعكر صفو الحياة، وتقضي على ينابيع القربى والإخاء..

أعرف امرأة كان كل همها في الحياة أن يخرج أبناءها للدنيا لا ليكونوا شيئاً كبيرًا وجيدًا، وإنما كان هدفها الأول والأخير: أن يتفوقوا على أبناء عمهم أو خالهم، فإذا ما صبحتهم أو مستهم تقول لهم: (علشان تبقوا أحسن من ولاد عمكم) أو(علشان ولاد خالكم ميبقوش أحسن منكم) فإذا ما أرادت منهم المذاكرة، تقول لهم ذلك، وإذا ما أيقظتهم للمدرسة تقول لهم ذلك، وإذا ذهبوا لدروسهم تقول لهم ذلك، حتى فُطِروا على هذا التحذير، خرج الفتيان للحياة ولا هدف لهم ولا غاية إلا أن يكونوا أفضل من أبناء عمومتهم، لا يهم أحدهم أن يخرج للدنيا فينفع قومه، أو يعلي وطنه، أو يفيد الإنسانية في أي جانب من جوانب التقدم والإصلاح، وإنما هدفه الأعظم وغايته الكبرى، هي التفوق والظهور على أبناء عمه، لأنه الهدف الذي غرسته فيه أمه، ووهبته لتحقيقه، وجعلته رسالة لا ينفك عن تحصيلها، وليس لديه أي استعداد لأن يرى غيرها في مسيرة حياته.. حتى أنني من معرفة أبنائها ودرايتي بما نشأوا عليه، تخيلت لو أن أبناء عمهم قد حدث لهم أي مكروه أو ماتوا مثلا، فإن هؤلاء الأبناء سوف يصيبهم الفتور واليأس في الدنيا، ولن يشعروا فيها بمعنى وجودهم، وسيرون أنهم لا قيمة لهم في الحياة.. لا حزنا عليهم، ولكن لأن من ماتوا هم من عاشوا من أجل التفوق عليهم، مات من نذروا أنفسهم لغلبتهم والعلو عليهم، مات من كان اسمهم رفيق كل حركة وسكنة خطوة من خطوات حياتهم.!

وأعرف أخرى جعلت من أقرباء ولدها، حبلاً تخنقه به أينما ذهب وحيثما صار، فلما حان وقت الامتحانات (لازم تجيب مجموع علشان تتفوق على ولاد عمك)، (لازم تنجح علشان تبقى أحسن من ولاد عمك، (لازم تدخل كلية كويسة علشان الناس تحترمك أكتر من ولاد عمك).. والفتى المسكين يسمع ويبلع ويصمت.. إلى أن انفجر.. وفر من الامتحان وهجر المدرسة، لأنها كانت بغبائها تحمله فوق طاقته، ولم تحترم قدراته التي جعله الله تعالى عليها.. لم تحثه وتشجعه على طريق التفوق بأسلوب حسن كريم، وإنما جعلت له شبحاً مرعباً وفزاعة كلما أرادت منه أن يذاكر ويجتهد، حتى كانت النتيجة.. فشل ذريع وهروب من ساحة التعليم ليتركها كاملة لأبناء عمه.

لقد فوتت هذه الأم المريضة أو النفس المريضة، كثيرًا من الخير والفضل والنهوض لكثير من الأسر والعائلات، يوم أن دمرت في نفوس أبنائها معنى الحب والتآلف والتآزر والوحدة والإخاء، لقد حطمت هذا السلم الذي كان يتداوله أبناء العائلة الواحدة فيما بينهم، ليصعدوا عليه وبه جميعا للأمام. قبح الله النساء الحاقدات وقبح فيهن هذا الغباء الذي جر علينا الخيبة والخسار، وصرنا معها متأخرين متخاذلين.

قالوا عن المرأة

هذه بعض أقوال في المرأة، منها الإيجابي ومنها السلبي، الذي يضعنا في حيرة أمام هذه التجارب التي عبر عنها أصحابها من الفلاسفة والعلماء والأدباء وغيرهم، نحب هنا أن نطرح جزءا منها، حتى تعيش بعض لحظات مع دوامة كبيرة من التناقض، طرحتها أراء ذات تجربة واقعية..

لكن المرأة مطالبة أن تنظر إليها بشيء من التأمل والمدارسة، كما أننا نؤمن بأن المرأة ليست كيانا واحدة أو نفسية مشتركة، وإنما هي شخصيات متعددة، لكل منها لونه وسمته وخصائصه المتغايرة، لكنها مما لا شك فيه، تبقى عالما محيرا يضج بالتناقض، وجاء من هذه الأقوال:

الرجل يعشق بعينيه والمرأة بأذنيها. "أديب اسحق"

المرأة لغز مفتاحه كلمة واحدة هي الحب."نيتشه".

الرجل من صنع المرأة، فإذا أردتم رجالاً عظاماً، فعليكم بالمرأة علموها ما هي عظمة النفس وما هي الفضيلة. "جان جاك روسو"

ثلاثة انتبه منها: الماء والنار والمرأة، فالماء تُغرق، والنار تحرق، والمرأة تفقدك صوابك. "شكسبير"

إن الرجل يشترى المجد والعظمة والشهرة، ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن. "جبران خليل جبران"

قد يكتب الرجل عن الحب كتاباً ومع ذلك لا يستطيع أن يعبر عنه، ولكن كلمة عن الحب من المرأة تكفي لذلك كله. "فيكتور هوجو".

قل للمرأة الخرساء سراً ستجدها تنطق "سيمونيان".

" إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة كلها ومات " توفيق الحكيم

المرأة أحلى هدية خصّ الله بها الرجل. "جويار".

ليس هناك امرأة تكره الحب سوى إمرأة شقيت من الحب. "سيروس".

عندما تُثقف رجلاً تكون قد ثقفت فرداً، وعندما تثقّف امرأة فإنما تثقف عائلة بأكملها. "سقراط"

متى أحبت المرأة حباً صادقاً تهذبت وسمتْ، واستحال عليها أن تتصور نفسها ملْكاً لغير الرجل الذي تحب، فلا المال ولا العواطف ولا أروع مفاتن الترف يمكن أن تؤثر فيها وتدفعها الى خيانة حبيبها. "إبراهيم المصري".

فشل المرأة في الحب يزيد من أنوثتها، وفشل الرجل في الحب يزيد من قسوته على المرأة والمجتمع. "صولون الأثيني"

المرأة هي أكبر مربية للرجل، فهي تعلمه الفضائل الجميلة، وأدب السلوك، ورقة الشعور. "أناتول فرانس".

المرأة أقرب الكائنات إلى الكمال، إنّها وسط بين الرجل والملاك. "بلزاك"

حب المرأة طاغية لا يقبل شريكاً، وديكتاتور يريد أن يخضع جميع عواطف الرجل لإرادته. "ستندال"

المرأة أنشودة مطرية من السماء."أناتول فرانس"

المرأة كالوردة تستدرج الرجل بأريجها لتلسعه بأشواكها. "أرسطو"

المرأة الصادقة هي التي تكذب فقط في سنها، ووزنها، ومرتب زوجها."ـ هنري فوجان

" الأرقام تكذب، وخاصة إذا كانت توضح سن المرأة." ـ رولاند

في الجنة: كانت حواء صريحة، أما بعد الخروج منها، فلعلها لم تكن ولن تكون صريحة. "المازني"

المرأة طفل كبير. "سقراط"

المرأة تريد أن تكون آخر امرأة في حياة من تحب، والرجل يريد أن يكون أول رجل في حياة من يحب. "شوبنهاور"

إن المرأة لا تهزأ من الحب ولا تسخر من الوفاء إلا بعد أن يخيب الرجل آمالها. "جوستاف لانتييه"

المرأة التي لديها حاسة سادسة، هي المرأة التي تفقد كل حواسها. "أثيان راي"

المرأة هي الجزء العصبي من المجموع الإنساني، والرجل هو الجزء العضلي منه "هالي".

إذا أردت أن تتوقف المرأة عن الكلام، اسألها عن عمرها. "أدوارد فيلبس".

المرأة هي الإناء الوحيد الباقي لنا لنفرغ فيه مثالياتنا. "جوته"

المرأة كوكب يستنير به الرجل، ومن غيرها يبيت الرجل في الظلام. "شكسبير".

المرأة العظيمة تلهم الرجل، أما المرأة الذكية فتثير اهتمامه، بينما تجد المرأة الجميلة لا تحرك في الرجل أكثر من مجرد الشعور بالإعجاب، ولكن المرأة العطوف.. المرأة الحنون.. وحدها هي التي تفوز به في النهاية." وليم شكسبير

النساء هن الدواهي لا طيب للعيش بلاهن والبلا هن. قول مأثور

قرأت الأنوثة حرفًا حرفًا ولا زلت أجهل ماذا يدور برأس النساء" نزار قباني

المرأة أبهج شيء في الحياة. "كونفوشيوس"

صوت الحب عند المرأة أقوى من صوت الضمير. "جان جاك روسو"

المرأة لا تهتم بسعادتها وبأن تكون سعيدة في حياتها، إنها تهتم بأن تكون محسودة من قبل صديقاتها. "هودينوا"

المرأة لا تستطيع أن تعيش في عزلة عن الدنيا، إلا إذا كانت أمامها جميع أحلامها، أو خلفها جميع ذكرياتها. "إبراهيم المصري"

اهتمام المرأة المبالغ بشكلها يجعلها تفقد مضمونها. "شوبنهور"

المرأة كالسيف والسلاح، إنّه يجرح من لا يعرف استعماله. "جان بيار فرديناند"

الغرور يدمر النساء أكثر مما يدمرهن الحب. "مدام دوديفان"

إن النساء يفكرن بالمعنى الخفي للأسئلة، أكثر من تفكيرهن بالأسئلة ذاتها. "غابرييل غارسيا ماركيز"

النساء يدركن كثيرا مما يخفيه الرجال، ولكنهن يتظاهرن بالجهل. "أدهم شرقاوي"

عندما تكره المرأة رجلاً لدرجة الموت، فاعلموا أنها كانت تحبه لدرجة الموت. "مارك توين"

لأن حزن النساء عميق وجرحهن غائر، فالرجل الذي أسعد امرأة كانت حزينة فعل شيئاً عظيماً، كأنما قتل كل الحزن في هذا العالم. "نيكولو ميكافيلي"

المرأة كالغصن الرطب، تميل إلى كل جانب مع الرياح، ولكنها لا تنكسر في العاصفة. "زواتلي"

الحب جزء من وجود الرجل، ولكنه وجود المرأة بأكمله. "بيرون"

المرأة الصالحة لا يعدلها شيء؛ لأنها عون على أمر الدنيا والآخرة. "عبد الله بن المقفع"

المرأة بلا محبة امرأة ميتة. "أفلاطون"

إذا أحبت المرأة فعلت كثيراً وتكلمت قليلاً. "علي مراد"

الحب عند المرأة نار مقدسة لا تشتعل أمام الأصنام. "حسن حافظ"

إن ضعف المرأة يجعلها بطبيعتها أكثر من الرجل استمساكاً بالقيم الخلقية. "راجكو ماري"

المرأة مخلوق بسيط لا غموض في خلقه، وبنظرة واحدة إلى وجهها يستطيع الرجل الذكي أو متوسط الذكاء، أن يتبين ما يعتمل في قلبها من أحاسيس. "أمينة السعيد"

الحب للمرأة كالرحيق للزهرة. "تشارلز ثوب"

يضاعف الحب من رقة الرجل، ويضعف من قوة المرأة. "جارلسون"

" المرأة مَثل الرقة والكمال. "فولتير"

" المرأة وحدها هي التي علمتني ما هي المرأة. "رديارد كبلنج"

" الغرور يدمر النساء أكثر مما يدمرهن الحب. "مدام دوديفان"

" إنّ الله حين أراد أن يخلق حواء من آدم لم يخلقها من عظام رجليه حتى لا يدوسها، ولا من عظام رأسه حتى لا تُسيطر عليه، وإنما خلقها من إحدى أضلاعه لتكون مساوية له قريبة من قلبه. "طاغور"

" في النساء ثلاث خصال من خصال اليهود: يحلفن وهن الكاذبات، ويتظلمن وهن الظالمات، ويتمنعن وهن الراغبات.. فاستعيذوا بالله من شرارهن، وكونوا من خيارهن على حذر". قول مأثور

" الكذب أحلى صناعة عند المرأة، لا تُلذ لها الحياة بدونه." ـ عبد السلام هاشم

" لو لم تكذب النساء في الحب، لفقدن سلطانهن على الرجال." – جوستاف لوبون

" اكتب وعود المرأة على صفحة الماء." ـ كاتولوس

" النساء يكذبن جيداً، وهن يكذبن يعتقدن أنهن يقلن الحقيقة." ـ هنري دورينيه

" يمكننا أن نجد دبلوماسيين يكذبون أفضل وأكثر مما يكذب بعض النساء، ولكننا لن نجد واحداً منهم يستطيع أن يكذب أسرع منهن." – اكولم دوشازال

" المرأة الصادقة هي التي تكذب فقط في سنها، ووزنها، ومرتب زوجها." ـ هنري فوجان

" الأرقام تكذب، وخاصة إذا كانت توضح سن المرأة." ـ رولاند

" قلب المرأة مصنع للأكاذيب." ـ مثل هندي

" ابحث سبع سنوات قبل أن تصدق خبراً صادراً عن المرأة." ـ بيليتان

" الرجال منذ القدم يسألون، والنساء يُدلين بإجابات كاذبة، ومع ذلك لم يتعلم الرجال بعد." بيكر برينر

" المرأة عندما تكذب تستهويها متعة التلفيق، فتؤخذ بالمتعة ولا تحفل بالكلام، وهكذا تعتقد وهي تكذب أنها مثال الصدق." ـ إبراهيم المصري

" عندما تحبك المرأة يصبح قلبها القابع خلف أضلعها هو نسخة أخرى من قلب أمك، تشعر بك، تقلق عليك، تفتقدك.!

" الكذابون الثلاثة: التاجر حين يحلف، والسكير حين يصلي، والمرأة حين تبكي." ـ مثل إيطالي

" للنساء قوة غريبة في الاختلاق، حتى إذا أردن أن يقُلن الحقيقة لا يستطعن." ـ شيلدن

" تستطيع أن تصدق المرأة، والإعلانات، ومديح الشعراء، وأقوال الدجالين.. فكلها ضلالات وأكاذيب." ـ برنارد شو

" احذر المرأة.. إنها حمقاء شرسة كقاطع الطريق، كاذبة لا تقول الحقيقة." ـ سبتلور

" لقد سلحت الطبيعة المرأة بالمكر والكذب والخداع، لأنها حرمتها من النبوغ والعبقرية" شوبنهاور

"عندما يغضب الرجل فإنه يقول الحقيقة، لأنه يفقد السيطرة على الكذب، أما المرأة فإنها عندما " "

"تغضب تكون أقدر على الكذب، لأنها تعرف كيف تتمالك أعصابها." ـ عادل سالم

المحتويات

مقدمة 4

المرأة في حياة العظماء 5

المرأة حينما تدفع للمجد 32

احذروا تمرد المرأة؟! 5

لا تحتقروا المرأة! 7

المرأة ملهمة أم ملهية؟ 9

أرأيتن كيف كانت أمه؟ 37

المرأة هي الشيطان 28

احذري لعنة الثقافة 46

من الأقوى؟ 13

الحرب في عيون النساء 49

مشورة المرأة 37

المرأة ومعترك السلطة! 40

زوجات متوحشات 15

المرأة والولاية؟ 56

تذكروا أنين المرأة 21

لا تسرقي زوجك 59

العقل يخطئ أحيانًا 59

المتعلقون بالنساء 73

أيتها النساء تذكرن خديجة 76

المرأة التي أضاعت دولة 78

المرأة المسترجلة 21
إن كيد النساء أعظم 15
هل تقبل المرأة ضرتها؟ 80
الغيرة المجنونة 49
عبقريات أنثوية 82
عقلية الفتيات 62
ليت زوجي كهذا! 87
لا تفضحي زوجك 89
المرأة والنبلاء 92
ليست متحررة بل عاقلة! 66
في عشق النساء 95
عرفت منقبة 49
نادوا المرأة باسمها 80
نساؤنا وعقدة شهريار 66
أمومة جاهلة 99
المرأة لا تنسى 21
قالوا عن المرأة 101

هذه فصول عن المرأة، وسطور تغوص في أعماق حياتها، وتعرض منها وعنها ألوانا مختلفة تجعل القارئ في حيرة من أمره، أمام هذا العنصر الذي ملأ الحياة وارتفع بالحياة، ومن جانب أخر حارت به الحياة وضجت من تناقضه.

لا نبغض المرأة أو نكرهها أو نقف منها موقفا عدائيًا عنصريًا، وكيف ننهج هذا وهي الأم والأخت والبنت والزوجة؟ ولكننا أردنا أو أراد قلمنا، أن يسطر شيئا من دنياها مما يتحير فيه المرء، ويتعجب دهشًا من أحوالها.